
الحشاشين
أحداث وشخصيات
كما ذكرتهم كتب التاريخ
أحمد عبد الحميد

مقدمة

جماعة الحشاشين، وتعرف أيضا بالطائفة الإسماعيلية النزارية، انتشرت في فارس والشام وأنشأت "الدولة النزارية الشرقية بالشام وفارس وبلاد الشرق"، وتأسست على يد حسن الصباح، الذي انشق عن الفاطميين لما تولى الخلافة أحمد الملقب بالمستعلي بالله، ودعا إلى خلافة نزار بن معد علي العبيدي، الذي أوصى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بتوليته من بعده.

وكانت الجماعة تتحصن بالقلاع وتنتهج الاغتيال وسيلة للقضاء على خصومها، وسببت رعبا للفاطميين بالقاهرة والعباسيين في بغداد والسلاجقة في إيران إضافة إلى الصليبيين. قضى على وجودها في فارس القائد المغولي هولاكو عام 1255 ميلادية وفي الشام أنهاها الظاهر بيبرس.

وفى هذا الكتيب الصغير سوف نحاول تقديم القصة التاريخية لتلك الجماعة كما ذكرت في كتب التاريخ محاولين تقديم الأحداث والسير الذاتية للشخصيات التاريخية التى كانت موجودة في فترة الحشاشين منذ ظهورهم حتى نهايتهم .

أحمد عبد الحميد

الزعيم والمؤسس

الحسن بن الصباح

حسن الصباح (الحسن بن علي بن محمد الحميري) ولد في 430 هـ/ 1037م وتوفى 518 هـ/ 1124م (وُلد وتوفي في فارس بإيران). وكان شيعيا اثنا عشريا وبعدها تحول إلى المذهب الإسماعيلي في من السابعة عشر كان يلقب بالسيد أو شيخ الجبل هو مؤسس ما يعرف بـ الدعوة الجديدة أو الطائفة الإسماعيلية النزارية المشرقية أو الباطنية أو الحشاشون حسب التسمية الأوروبية.

والمذهب الشيعي الاثنى عشريا أو الجعفرية هم طائفة دينية إسلامية، وعادة فإن لفظة الشيعة إذا قيلت مطلقة دون تخصيص فإن الذهن ينصرف نحو الاثني عشرية لكونها الطائفة الكبرى من حيث عدد الأتباع من بين الطوائف الشيعية الأخرى، وتُسمَّى الذين أطلقت عليهم هذه التسمية تمييزاً لهم عن الطوائف الأخرى التي تحمل اسم الشيعة كالزيدية والإسماعيلية، ولاعتقادهم بأنَّ النبي محمد قد نصَّ على اثني عشر إماماً خلفاء من بعده، فكانت عقيدة الإمامة هي الفارق الرئيس بينها وبين بقية الطوائف الإسلامية.

أما المذهب الاسماعيلي الذي تحول إليه حسن الصباح فهو إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الاثنى عشرية، وهي من الفرق الباطنية .

عقيدة الإسماعيلية

القرآن

هو مصدر التشريع الأول والكتاب الألهي الوحيد الذي يعتبر الخارج عنه كافرا ومرتدا عن الإسلام، ومنه تنبثق كل العقائد الإسماعيلية الأمامية، وهو يحوي على طبقات للمعرفة البشرية، وإن كان تفسيره يحتمل تفسيرا ظاهرا وآخر باطنا لايمكن معرفته إلا للعلماء المختارين والأئمة.

الجنان

هو كتاب الإسماعيليين المقدس، وهو عبارة عن بيوت شعر وتعليمات أخرى.

البعث

هو يوم القيامة الذي يتم فيه محاسبة البشرية على أخطائها ومعاصيها وجرائمها

الأرقام

لكل رقم دليل ديني معين وللأرقام دلالة بالغة الأهمية حين يتم ذكرها بالقرآن، مثال الرقم 7 : فهناك سبع سموات وسبع طبقات للنار وسبعة أيام في الأسبوع والدنيا خلقت في ستة أيام وهكذا...---

الإمامة

تنطلق الأمامة من الأمام علي بن أبي طالب ولا تتوقف عند الإسماعيليين بل يعتبرون أن هناك أماما لكل زمان وعصر وهذا الإمام تتوافر فيه مواصفات العدل والزهد والشجاعة والحكمة والصدق ولذلك تجب طاعته في كل أوامره.

الداعي المطلق

صلة الوصل ما بين التلامذة والإمام والذي يمرر المعلومات السرية

الظاهر

هو ما ظهر من معاني القرآن والكلام الحرفي الذي يكون فهمه واضحا للجميع، والظاهر هو ما تخطه الكلمات الالهية كأوامر للبشر ويمكن للجميع ملاحظته.

الباطن

هو المعاني والحقائق الخفية الموجودة وراء الكلمات الإلهية في القرآن والكتب السماوية والتي لا يدركها إلا الائمة العالمون، وهي تخفي حقائق الوجود المستورة خلف هذه الكلمات الإلهية، وتخفى على كل الناس ولا يمكن رؤيتها الا بأذن الله.

العقل

يعد العقل عند الطائفة الإسماعيلية هو عامل التشريع الدنيوي

الأساسي، فإن تعارض نص في الحديث النبوي أو القرآن الكريم مع مقتضيات العصر وتحدياته الطارئة، وجب التعديل ضمن تشريع قانوني بما يلائم المصالح الطارئة للمجتمع مع عدم المساس بالجوهر التشريعي للنص القرآني أو النبوي، والتأكيد أن النص القرآني أو النبوي هو الأساس، والتعديل الذي يتم إنما يتم ضمن قانون خاص يمكن تعديله لاحقا في حال تغير الظروف.

الأعمدة السبع الولاية

تعتبر الولاية مفهوما سياسيا وقياديا كالرئيس أو الملك أو السلطان، تجب طاعة الوالي أو الأمام على الحق، والثورة عليه وخلعه في حال كان ظالما أو معتديا أو متخاذلا، ولا يصح قيام دولة إسلامية أو قيام جماعة تتخذ الإسلام دينا لها إلا بوجود والي قائد مسؤول عن مصالح هذه الجماعة كبرت أم صغرت، وتعتبر إقامة العدل وحفظ الأمن والرعية.

*****

الاصدقاء الثلاثة والعهد

في كتاب "الإسماعيليون: تاريخهم وعقائدهم"، الذي يعد أول تأليف شامل عن تاريخ الطائفة الإسماعيلية الشيعية، وتطور عقائدها، تناول الكاتب فرهاد دفتري، المدير المشارك لمعهد الدراسات الإسماعيلية في العاصمة البريطانية لندن، والذي يمثل مرجعاً في الدراسات الإسماعيلية، قصة الأصدقاء الثلاثة الخيام والصباح ونظام الملك.

وقال الكاتب عن عهد رفاق الدراسة الذي تعاهده حسن الصباح ونظام الملك وعمر الخيام، فقال إن المؤرخ الفارسي رشيد الدين كان أول من اقتبس تلك الحكاية، ثم تكررت عند عدة مؤرخين فرس لاحقين.

وتروي القصة أن حسن الصباح ونظام الملك والشاعر الفلكي عمر الخيام كانوا تلامذة في صغرهم عند معلم واحد في مدينة نيسابور بإيران، وكانوا قد تعاهدوا في ما بينهم على أن يقوم أول من يتسلم منهم منصباً عالياً بمساعدة الاثنين الآخرين.

وفي الوقت المناسب، صعد نظام الملك إلى منصب الوزارة في الإمبراطورية السلجوقية التركية، وعندئذ تقدم منه رفيقاه لتنفيذ العهد، فعرض نظام الملك عليهما منصب والي مقاطعة، وهو ما رفضه الاثنان لأسباب مختلفة، فالخيام الذي لم يكن يرغب في منصب عام رضي بتلقي عطاء منتظم من الوزير.

أما حسن الصباح الطموح فإنه كان يسعى إلى مناصب أرفع في البلاط السلجوقي، ونال حسن ما كان يرغب، وسرعان ما أصبح منافساً خطيراً لنظام الملك فتآمر نظام الملك، بالتالي، على حسن ونجح في النهاية في فضحه أمام السلطان، وأرغم على الفرار من الري، ومن هناك إلى مصر بينما كان يفكر بالثأر لنفسه.

ومع ذلك، قال الكاتب إنه بناء على التباين في أعمار أبطال هذه الحكاية، الذين نشأوا في صغرهم في مدن مختلفة، فإن معظم الباحثين العصريين قد استبعدوها على أنها حكاية خيالية.

***

وفي كتابه "عمر الخيام"، ذكر المؤلف والمترجم العراقي أحمد الصراف، الراحل عام 1985، إن من أفظع الحوادث التي وقعت في عهد عمر الخيام، حادث الطائفة الباطنية التي سميت بالحشاشين، وكان مؤسسها وواضعها زميل الخيام وشريكه في طلب العلم الحسن بن الصباح، ولم يكن الحسن هو المؤسس الأول لهذه الطائفة الجهنمية، وإنما بعثها من مرقدها وجدد دعوتها وأشعل نارها بعد أن خمدت مدة قرنين، وكان في بادئ أمرها تسمى الإسماعيلية ثم سميت بالقرامطة.

والحسن بن الصباح، الذي ولد حوالي سنة 430 هـ، كان قد تلقى علومه على الإمام موفق النيسابوري الإيراني مع عمر الخيام ونظام الملك الوزير في مدينة نيسابور بإيران، وكان يدعي أنه ينتمي إلى

"يوسف الحميري" أحد أمراء اليمن، وكان يقول أن والده جاء من الكوفة إلى قم ومنها إلى الري، إلا أن أهالي طوس لم يصدقوه، وكانوا يدعون أن والده اسمه "علي" هو من إحدى قرى خراسان الإيرانية، ولعل الصباح جده أو لقب أبيه.

وقصد الحسن بن الصباح الوزير نظام الملك وذكره بالعهد الذي تعاهدوا على إنفاذه يوم كان هو وعمر الخيام ونظام الملك يتعلمون في نيسابور الإيرانية، فرحب به نظام الملك وقدمه إلى السلطان ملكشاه وعينه كبير الحجاب، إلا أن الحسن العالي الهمة الكبير النفس الطموح لم يرض بهذا المنصب، فقد سولت له الجشعة الإيقاع بمن أنعم عليه وأكرمه فأخذ يتحين الفرص للفتك بالوزير للحصول على منصبه الخطير.

واتفق أن ملكشاه طلب يوماً إلى نظام الملك أن يقدم له الموازنة فاستعذره نظام الملك، وطلب إليه أن يمهله سنة واحدة، فلما بلغ ذلك حسن الصباح قابل الملك ووعده بأنه سوف يقدم له الموازنة بعد أربعين يوماً وقد فعل ذلك وقام بما وعد به خلال الأجل المضروب، فأحس نظام الملك بالدسائس التي يدبرها الحسن، فعمد إلى الحيلة للتخلص منه، فأخفى أوراقاً سرية تعود إلى الدولة.

ولما طلع السلطان على الأوراق وجد فيها نقصاً فوبخ حسناً ووجد عليه، فاضطر حسن أن يترك البلاط وذهب إلى أصفهان واختفى عند رجل يسمى أبا الفضل، وفي مدة بقائه عنده كانت تظهر عليه حالات عصبية وانفعالات نفسية، وقد قال ذات يوم لأبي الفضل لو

كان لي صديقان صادقان صادقان لقضيت على حكومة هذا التركى وهذا القروي، يريد بالأول الملك وبالثاني وزيره نظام الملك.

***

وفي رواية أخرى، تناولت "رباعيات الخيام" صداقة نظام الملك، واسمه حسن الطوسى أو الحسن بن على بن إسحق، وكنيته أبو علي، مع عمر الخيام وحسن الصباح، حيث ذكرت أن الصداقة تناولتها المراجع من أمثال جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله عام 710 هـ وتذكر الشعراء لدولت شاه 892 هـ وروضة الصفا لميرخند 903 هـ والكتب الثلاثة نقلت قصة صداقتهم من وصية الوزير نظام الملك، والتي فيها يحيى نبذه عن حياته.

وتذكر القصة نظام الملك كان أباه قد سمع بعلم الإمام الموفق النيسابوري في إيران، وأن من يتلقى عليه علوم العربية لابد أن ينبغ فيها ويبلغ الغاية وينساق إليه العز والجاه، ولذلك فقد وجهه إلى نيسابور بإيران، ليقرأ على ذلك النابغة الجليل، وفى أول جلوسه لحلقة الدرس التقى تلميذين حديثي عهد بالقراءة إلى أستاذهم الموفق، وكانا عمر الخيام وحسن الصباح.

ويحكى نظام الملك أنهما كانا في غاية الفطنة والذكاء، فأنس كل منهم بالآخر، ونمت بينهم علاقة صداقة كالتي تنشأ بين الصغار دائما عندما يتزاملون فى الدراسة، فإذا قام الإمام من حلقة الدرس اجتمعوا عند نظام الملك ليذاكروا ما تلقوه.

ويقول نظام الملك عن حسن الصباح إنه كان يكذب إذ يرجع أصوله إلى حمير من آل الصباح، ولكن الناس فى خراسان وطوس بالأخص يؤكدون أنه من عامة الناس، وأن أباه شديد التنسك والورع والتقشف ولكنه متهم في عقيدته، وكان الحسن ينكر ولكنه أحيانا ينسى نفسه ويتلفظ بما يقضى بكفره، وكان شديد النقد والتحامل على أهل السنة "، فإذا واجهه الإمام الموفق بما قال أبدى البراءة، وتنصل من التهمة مخافة أن يطرده الإمام من الحلقة.

وجاء الحسن زميليه يوما واقترح أن يتعاهدا على أن من يحقق لنفسه مستقبلاً ناجحًا فلا يقصر في حق صاحبيه وليقتسم معهما ما حصله من خير وتعاهدوا، وافترقوا، ومضت السنون، ويقول نظام الملك إنه سافر طلبا للرزق، وتقلبت به الأحوال إلى أن التحق بخدمة السلطان وارتقى إلى الوزارة، فسمع به صاحباه عمر الخيام وحسن الصباح، فقدما إليه يستقضيان العهد.

ولما عرض نظام الملك على الخيام أن يوليه إمارة أو يلحقه بخدمة السلطان، بالنظر إلى علمه وأن مثله ينبغي الانتفاع به، أبي وأبدى عزوفًا عن السياسة والوظائف العامة، وآثر أن يخصه النظام براتب سنوي يكفيه ويغنيه عن الناس ليتفرغ لمواصلة دراسة علوم الحكمة وخاصة علم الهيئة فيفيد منه الناس، وتمضى القصة أن حسن الصباح طلب الاشتغال بالحكم، وظن النظام أنه يطلب إمارة أحد الأقاليم فخيره بين الري وهمذا، ولكنه رفض العرضين وطلب أن يشركه معه في الوزارة.

فاكتفى الوزير أن يبوأه معه مكانا عليا في القصر فعمل الحسن على أن يتصل بندماء السلطان وأن يجتذبهم إليه، فكان كثير الاجتماع بهم والسمر معهم وملاعبتهم النرد والشطرنج حتى ارتقى في الوظيفة وصار حاجبا للسلطان.

وكان الصباح من الشيعة الإسماعيلية فكان يكره النظام لهذا السبب لأنه كان سنيا متعصرا لسنيته، وكانت تلك الكراهية دافعا له أن يدس للنظام عند السلطان حتى اتهمه هذا الأخير بتبديد أموال الدولة وإساءة التصرف فيها، وتقول القصة إن هذه الفرية انكشف أمرها فهرب الصباح إلى أذربيجان ومنها إلى الشام، ثم نزح إلى مصر سنة 471 هـ.

* * * * *

تأسيس جماعة الحشاشين

بعد دراسة عقائد المذهب الإسماعيلي في مصر غادر حسن الصباح القاهرة نتيجة خلافات سياسية.فوصل أصفهان سنة 1081 م. ليبدأ رحلته في نشر تعاليم العقيدة الإسماعيلية، وركز جهوده على أقصى الشمال الفارسي، وبالتحديد على الهضبة المعروفة بإقليم الديلم واستطاع أن يكسب الكثير من الأنصار في تلك المنطقة.

ولم يكن حسن الصباح مشغولاً فقط بكسب الأنصار لقضيته؛ وإنما كان مشغولاً أيضاً بإيجاد قاعدة لنشر العقيدة الإسماعيلية في كل البلاد للابتعاد عن خطر السلاجقة حيث فضل معقلاً نائياً ومنيعاً وملاذاً آمناً للإسماعيليين، فوقع اختياره على قلعة ألموت. قلعة ألموت هي حصن مقام فوق طنب ضيق على قمة صخرة عالية في قلب جبال البورج، ويسيطر على واد مغلق صالح للزراعة يبلغ طوله ثلاثين ميلاً وأقصى عرضه ثلاثة أميال والقلعة ترتفع أكثر من 6000 قدم فوق سطح الأرض، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر طريق ضيق شديد الانحدار.

استطاع حسن الصباح من دخول القلعة سرا يوم الأربعاء الموافق 4 سبتمبر 1090م بفضل أنصاره المتخفين داخل القلعة وظل متخفياً داخلها لفترة وجيزة قبل أن يسيطر على كامل القلعة وأخرج مالكها القديم بعد أن أعطاه 3000 دينارا ذهبيا ثمناً لها. وبذلك أصبح سيداً لقلعة الموت، ولم يغادرها طيلة 35 عاماً حتى وفاته.

سبب تسمية الحشاشين

إن أقدم تطبيق كتابي لمصطلح «حشيشية» على النزاريين نجده في الرسالة التي كتبها الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة 1123م والمرسلة إلى الإسماعيليين في الشام «(إيقاع الصواعق الإرغام)» وكان الهدف من هذه الرسالة نقض مزاعم نزار المصطفى لدين الله بالإمامة والتأكيد على شرعية الخط المستعلي وقد استخدم فيها مصطلح الحشيشية مرتين من دون تقديم سبب واضح.

وتمت الإشارة إلى النزاريين مرة أخرى بالحشيشية في أقدم كتاب سلجوقي معروف للأخبار كتبه سنة 1183م عماد الدين الأصفهاني في كتابه «(نصرة النصرة)» من دون تقديم معنى اشتقاقي للكلمة وقد استخدم مصطلحات أخرى للقذف مثل الباطنية والملاحدة.

أما المؤرخون الفرس من الفترة الإيلخانية ومنهم الجويني ورشيد الدين اللذان هما المصدران الرئيسان لتاريخ الجماعة النزارية في فارس - فلم يستخدموا مصطلح الحشيشية أبداً، وقد استخدموا مصطلح «الملاحدة» عندما لم تكن الإشارة إليهم كإسماعيليين.

وتبقى الحقيقة أنه لا النصوص الإسماعيلية التي تمت استعادتها حتى الآن؛ ولا أياً من النصوص الإسلامية غير الإسماعيلية المعاصرة التي كانت معادية للنزاريين تشهد بالاستعمال الفعلي للحشيش من قبل النزاريين، وحتى المؤرخون الرئيسيون للنزاريين

مثل الجويني الذي نسب كل أنواع الدوافع والمعتقدات الخبيثة للإسماعيليين فإنهم لا يشيرون إليهم «بالحشاشين» والمصادر العربية التي تشير إليهم بذلك لا تشرح البتة هذه التسمية من جهة استعمال الحشيش.

وتبقى هناك آراء أخرى حول الأصل الاشتقاقي للكلمة منها:

أساسان (Assasins): أي القتلة أو الاغتياليون. وهذه لفظة كان يطلقها الفرنسيون الصليبيون على الفدائية الإسماعيلية الذين كانوا يفتكون بملوكهم وقادة جيوشهم؛ فخافوهم ولقبوهم «الأساسان».

حسامان: نسبة إلى شيخ الجبل «الحسن بن الصباح» الذي أوجد منظمات الفدائية.

عساسون: مشتقة من «العسس» الذين يقضون الليالي في قلاعهم وحصونهم لحراستها والدفاع عنها.

أساسين: مأخوذة من الكلمة الأصلية (المؤسسين) حيث أنهم أسسوا قوتهم في قلعة ألموت.

ومع بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر بدأت التحويرات العربية لمصطلح الحشاشين تلتقط محلياً في سورية وتصل إلى مسامع الصليبيين لتكون عدداً من

المصطلحات"Assassin,Assissini,Heyssessini" والتي صار ينعت فيها الإسماعيليون النزاريون في سورية الأمر الذي أدى لظهور اسم جديد دخل إلى اللغات الغربية وهو "Assassin"

وأصبح يعني «القاتل»، وقد كانت المخيلة الأوربية خصبة في وصف هؤلاء الحشاشين، وزخرت كتبهم بالكثير من الأساطير حولهم فنجد قصة الرحالة الإيطالي ماركو بولو التي باتت تعرف بـ«أسطورة الفردوس» والذي نقرأ في كتابه في وصف قلعة الموت ما يلي:

« بأنه كانت فيها حديقة كبيرة ملأى بأشجار الفاكهة، وفيها قصور وجداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وبنات جميلات يغنين ويرقصن ويعزفن الموسيقى، حتى يوهم شيخ الجبل لأتباعه أن تلك الحديقة هي الجنة، وقد كان ممنوعاً على أي فرد أن يدخلها، وكان دخولها مقصوراً فقط على من تقرر أنهم سينضمون لجماعة الحشاشين، كان شيخ الجبل يُدخِلهم القلعة في مجموعات، ثم يُشربهم مخدر الحشيش، ثم يتركهم نياماً، ثم بعد ذلك كان يأمر بأن يُحملوا ويوضعوا في الحديقة، وعندما يستيقظون فإنهم سوف يعتقدون بأنهم قد ذهبوا إلى الجنة، وبعدما يُشبعون شهواتهم من المباهج كانوا يُخدرون مرة أخرى، ثم يخرجون من الحدائق ويتم إرسالهم عند شيخ الجبل، فيركعون أمامه، ثم يسألهم من أين أتوا؟، فيردون: "من الجنة"، بعدها يرسلهم الشيخ ليغتالوا الأشخاص المطلوبين؛ ويعدهم أنهم إذا نجحوا في مهماتهم فإنه سوف يُعيدهم إلى الجنة مرة أخرى، وإذا قُتلوا أثناء تأدية مهماتهم فسوف تأتي إليهم ملائكة تأخذهم إلى الجنة! »

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة الموت قد أحرقت سنة 1256م بينما

ولد ماركو بولو سنة 1254م فإذاً لم يكن قد زارها وعمره سنتين فهو لم يزرها أبداً. كما أن الطبيعة المناخية لقلعة ألموت التي تغطيها الثلوج طيلة 7 أشهر بالسنة يجعلها غير صالحة لزراعة الحدائق الموصوفة في الكتاب. وعلى كل حال فإن مثل هذه القصص المليئة بالمبالغة والخيال نجدها كثيراً عند ماركو بولو.

*****



الحسن بن علي بن مُحمد الحميري الشهير بحسن الصباح مؤسس جماعة الحشاشين

أسباب اغتيال نظام الملك السلجوقي

هو قوّام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الملقب بـ نظام المُلك، من مواليد طوس، في خُراسان أحد أشهر وزراء السلاجقة، كان وزيرا لألب أرسلان وابنه ملكشاه، لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه «المدارس النظّامية»، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدثين وفي مقدمتهم حُجّة الإسلام أبو حامد الغزالي. اغتاله الحشاشون في 10 رمضان 485 هـ الموافقة لسنة 14 أكتوبر 1092 م.

وقد تولّى الوزارة للسلطان السلجوقي ألب أرسلان ثاني سلاطين الدولة السلجوقية واعتمد من أول يوم لوزارته سياسة تقريب الرجال الأكفاء الصالحين واشترك مع ألب أرسلان في معركته الشهيرة ملاذكرد ضد الروم وعلا قدره عند ألب أرسلان جداً وحاول السعاة والوشاة أن يغيروا قلبه تجاه نظام الملك ولكنه لم يسمع لهم وعند موته أوصى ولده ملكشاه أن يتخذ نظام الملك وزيراً من بعده وبالفعل صار نظام الملك لملكشاه وظل على كفاءته ومقدرته العالية في إدارة البلاد.

ظهرت قوة الوزير نظام الملك وتكرس نفوذه بعد وفاة ألب أرسلان فوقف إلى جوار ابنه الأكبر ملكشاه، وكان الصراع حينها محتدما بين أفراد البيت السلجوقي، لكن ملكشاه كان أرجحهم كفة وأقواهم نفوذ فضلا عن مؤازرة الوزير نظام الملك وتأييده له فتولى السلطنة

وأسند الوزارة إلى نظام الملك حتى تستقر الأوضاع ويعم الأمن أرجاء الدولة.

كان السلطان الجديد في سن العشرين عندما تولى الحكم، في حين كان وزيره في الخامسة والخمسين، سياسيا محنكا، صهرته التجارب والأيام، وخبر الحكام والسلاطين، وهو ما جعل السلطان الجديد يجلّه ويحترمه، ويخاطبه بكل تبجيل ويناديه بالعم، ويلقي إليه بمقاليد الأمور ويضع فيه ثقته، قائلا له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد».

أدت هذه العلاقة الوثيقة بين السلطان ووزيره إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد، حيث أصبحت أكبر قوة في العالم آنذاك.

وكان نظام الملك يهتم بالعلماء والزهاد والمدارس العلمية وينفق عليها الأموال الضخمة، فسعى خصومه بالوشاية إلى السلطان ملك شاه، وقالوا: "إن نظام الملك ينفق في كل سنة على الفقهاء والقراء ثلاثمائة ألف دينار ولو صُرف هذا المال على جيش لرفع رايته على أسوار القسطنطينية". فطلب السلطان وزيره للاستجواب، فرد عليه قائلاً "... ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أقمت لك بهذا المال جيشا يسمى جيش الليل، قام بالدعاء إذا نامت جيوشك، فمدوا إلى الله أكفهم وأرسلوا دموعهم فتصل من دعائهم سهام على العرش، لا يحجبها شيء عن الله، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وببركاتهم

ترزقون". فبكى السلطان وقال بالتركية: "ها باشي يا أبت ها باشي"، وترجمة ذلك بالعربية: "استكثر من هذا الجيش".

يعد الوزير نظام الملك من أكثر الشخصيات تأثيراً أيام السلطان ألب أرسلان، ويذكر المؤرخون، أن نظام الملك أحد أهم الشخصيات في التاريخ الإسلامي وقد صاحب السلطان في معظم حروبه.

شجع هذا الوزير الشخصيات الشهيرة في الآداب والعلوم في زمانه مثل الشاعر عمر الخيام وكان فلكياً نابغة. كما أنشأ المجامع العلمية في بغداد وأشهرها المدرسة النظامية عام 1067 م. من تلاميذ هذه المدرسة عماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين شداد اللذان خدما السلطان صلاح الدين الأيوبي، السعدي الشاعر الفارسي مؤلف بستان السعدي، كما درس بها شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي وعبد الله بن تومرت مؤسس دولة الموحدين في أفريقيا، وأبو حامد الغزالي مؤلف كتاب «إحياء علوم الدين». وحاضر فيها عبد القادر الجيلاني المصلح المعروف ورائد عصر الإصلاح الديني الذي مهد لجيل صلاح الدين الأيوبي والسفير الشاعر علي بن أبي طالب البلخي.

ألف نظام الملك كتاباً في فنون الحكم يعرف باسم «سياست نامه» (سير الملوك) تحدث فيه عن تنظيم الحكم وعن ضرورة قيام العدل، وتنظيم أمور الدولة والاستقطاع، وتنظيم الإدارة والجيش، وتاريخ العلاقة بين السلطة المركزية في عصر السلاجقة.

كان نظام الملك بعدما كبر سنه يستعين بأبنائه وأقاربه في إدارة أقاليم الدولة، وكان لهؤلاء نفوذ كبير في الدولة؛ استمدادًا من نفوذ نظام الملك نفسه، وكان بعضهم يسيء استخدام السلطة ويستغل نفوذه في مآربه الخاصة، وهو ما أعطى الفرصة لحساد نظام الملك أن يفسدوا العلاقة بينه وبين السلطان ملكشاه، ونجحت مساعيهم في ذلك، حتى همّ السلطان بعزله.

وفي يوم العاشر من رمضان عام 485 هـ، خرج نظام الملك مع السلطان ملكشاه من أصبهان قاصدا بغداد، فاجتاز في بعض طريقه بقرية بالقرب من نهاوند، وحان وقت الإفطار فصلى نظام الملك المغرب في هذه الليلة وجلس على السماط وعنده خلق كثير من الفقهاء والقراء والصوفية وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أرض نهاوند وأخبار الوقعة التي كانت به بين الفرس والمسلمين في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ومن استشهد هناك من الأعيان ويقول: «هذا الموضع قتل فيه خلق كثير من الصحابة زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين فطوبى لمن كان معهم».

قتل الوزير نظام الملك في أصبهان في (10 رمضان 485 هـ = 14 أكتوبر 1092) على يد أبي طاهر الأراني، والذي هو أحد أعضاء فرقة الإسماعيلية المعروفة بالحشاشين، حيث تقدم إليه وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو زاهد، فلما اقترب منه أخرج سكينًا كان يخفيها وطعنه طعنات قاتلة، فسقط صريعاً ورغم

الإمساك بقاتله إلا أنه قال، كما يروي بعض خدامه: «لا تقتلوا قاتلي فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات». وخلفه في الوزارة أحد خصومه وهو تاج الدين الشيرازي الذي على ما يبدو لم يكن خير خلف لخير سلف ويعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً توفي السلطان ملك شاه، في (15 شوال 485هـ= 18 نوفمبر 1092م) فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقا وازدهارًا.

* * * * *



قوّام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الملقب بـ خواجة بزك أي نظام الملك

محاربة الامام الغزالي لفرقة الحشاشين

اتخذ الإمام الغزالي علمه وكتابته وسيلة لمحاربة تلك الأفكار الباطنية والدموية، ذلك بعدما ألم بعلومهم ومناهجهم وأصول دعوتهم وبمصادرهم ومواردهم بل وأخذ يناقشهم ويتتبع آرائهم ويكشف للجميع حقيقة مذهبهم وخفايا دعوتهم المزعومة ويدحض آرائهم، ويبين مدى خطرها على الإسلام والمسلمين.

ألف الغزالي كتاب المستظهرية أو فضائح الباطنية في 1059 م، في وقت كان خطر وضرر الباطنية متمثل في فرقة الحشاشين يتناثر في كل أنحاء الخلافة العباسية، إذ كانت تعرف الفرقة بدمويتها واغتيالاتها المتكررة والعنيفة للشخصيات المعارضة لها، والكبيرة في المجتمع آنذاك.

ومرد الغزالي في كتابه فضائح الباطنية عشرة تسميات للباطنية، وأشار إلى أن الباطنية تدعي أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر لكنه اعتمد اسم التعليمية لأنها الأكثر ملائمة لفكر الباطنية في عصره، ولأنهم قالوا أن لا سبيل إلى أخذ العلوم إلا بالتعليم.

وبدأ الإمام الغزالي الباب الرابع فضائح الباطنية بالقول: هو مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض، ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس، وأما تفصيله فيتعلق بالإلهيات والنبوات والإمامة والحشر والنشر.

ويقول الغزالي كذلك إن الوحي عند الباطنية قائم على العقل وليس على الله كما يوضح الإمام الغزالي أن الباطنية اتفقت على أنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الإشكالات في القرآن والأخبار والمعقولات، واتفقوا على أن الإمام يساوي النبي في العصمة، ثم قالوا إن لكل نبي مدة محددة، فإذا انصرمت مدته بعث الله نبيا آخر ينسخ شريعته، ومدة شرعة كل نبي سبعة أعمار وهو سبعة قرون.

*****

أبناء حسن الصباح

يوضح الأديب الكبير عباس العقاد في كتابه "فاطمة الزهراء والفاطميون" بعضا مما وصل عن سيرة شيخ القلعة المغرور الداهية الحسن بن الصباح، موضحا أنه استولى على قلعة "ألموت" في سنة 483 هجرية ومات في سنة 518 هجرية، فظل مالكًا لتلك القلعة باسطًا نفوذه على ما حولها خمسًا وثلاثين سنة، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الإسلامية من مراكش إلى تخوم الصين، وولى عهده، وتسمى بالمهدي وانتحل البنوة الروحية للانتساب إلى الإمام، واستعان بتعدد المراجع في المذهب، فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم "نزار".

وحول حياة الرجل في القلعة، ومن تبقى من أسرته، يقول العقاد في الكتاب سالف الذكر: إن حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة ألموت كانت سبب في حيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين، لافتا إلى أن الصباح لم يكد يفارق قلعة "ألموت" بعد دخولها، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه. وهذا الزعيم «الباطني» الذي قيل عن مذهبه: إنه ذريعة إلى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطايب، فضلًا عن الحرام، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته إياه في شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل ولدًا واحدًا بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطمع له بعدها في الذرية، وهذه هي حيرة أخرى

من حيرات لا تحصى في مسلك هذا الإنسان العجيب كله، وفي مسلكه قبيل وفاته على الخصوص.

ويرى العقاد في تفسيره لإقدام الحسن بن الصباح على قتل ابنائه بأنه قد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين إلى مكانه كما جاء في بعض الروايات، وقد يكون أحدهما هو الذي تآمر عليه كما هو الأرجح، ويكون ظنه بالآخر أنه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده، وقد يكون بطشه بابنه في سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لإقدامه على البطش بالغرباء في هذا السبيل.

*****

عمر الخيام

ولد عمر الخيام بن إبراهيم بن صالح خيامي في 18 مايو 1048 في مدينة نيسابور التي كانت إحدى المدن الرائدة في خراسان خلال العصور الوسطى التي وصلت إلى ذروتها من الازدهار في القرن الحادي عشر في عهد الدولة السلجوقية. وكانت كذلك مركزاً رئيسياً للديانة الزرادشتية. يُعتقد أنّ والد عمر الخيام كان من أتباع الديانة الزرادشتية الذين اعتنقوا فيما بعد دين الإسلام. على الرغم من أن كلمة الخيام تعني صانع الخيم باللّغة الفارسية، إلّا أنّه لا يوجد أيّ مصدر موثوق يؤكّد أنّها كانت مهنة والده، أو مهنة العائلة بشكلٍ عام. تُظهر المصادر العربيّة اسم عمر الخيام على أنّه أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام. ويُسمى في النصوص الفارسية التي كُتبت في العصور الوسطى ببساطة عمر الخيام. يقدّم المؤرخ البيهقي -الذي كان على دراية شخصية بعمر- التفاصيل الكاملة لبرجه: «كان برجه هو الجوزاء، وكان يوم ولادته كلّ من الشمس وكوكب عطارد في حالة صعود [...]». وهو ما استخدمه العلماء لتحديد تاريخ ميلاده في 18 مايو 1048.

أمضى الخيام طفولته في مدينة نيسابور وتمّ تقدير مواهبه من قبل أساتذته الأوائل الذين أرسلوه للدراسة عند أعظم معلّم في منطقة خراسان وهو الإمام موفّق نيسابوري، الذي كان يُدرّس أولاد النبلاء. سافر عمر الخيام بعد دراسة العلوم والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك في مدينة نيسابور إلى مدينة بخارى في عام 1068 ،

حيث كان يتردد إلى مكتبة الفلك المرموقة، وانتقل في عام 1070 إلى مدينة سمرقند، حيث كان يعمل «أبو طاهر» حاكم ورئيس القضاة في المدينة. كتب الخيام خلال عام 1070، أعماله الجبرية الأكثر شهرة، وأطروحته (رسالة في براهين الجبر والمقابلة) التي كانت مكرّسة لمعلّمه القاضي أبو طاهر.

دخل الخيام -عندما أصبح في سن السادسة والعشرين عام 1073- في خدمة السلطان ملك شاه الأول مستشارا، فقد دعي إلى أصفهان من قبل الوزير نظام الملك عام 1076 بهدف الاستفادة منه في المكتبات ومراكز التعليم هناك. بدأ في ذلك الوقت بدراسة أعمال عالم الرياضيات اليوناني إقليدس وأبولونيوس عن كثب. وشرع -بناءً على طلب الوزير نظام الملك- في إنشاء مرصد فلكي في أصفهان، حيث قاد مجموعةً من العلماء لإجراء عمليات رصد فلكيّة دقيقة تهدف إلى مراجعة التقويم الفارسي. أنهى في عام 1079 مع فريقه عمليات قياس طول السنة بدقّة مذهلة، حيث عبّروا عنها بـ 14 خانة: 365.24219858156 يومًا. في الواقع، ووفقًا لأكثر القياسات الحديثة دقّة، كان ذلك الرقم دقيقاً في خاناته الثمانية الأولى، ويحدث الاختلاف من سنة إلى أخرى في الخانة الثامنة، مما يجعل التقويم الذي ابتكره النظام الأكثر دقّة على الإطلاق.

بعد وفاة ملك شاه ووزيره، فقد عمر التأييد وسرعان ما انطلق -نتيجةً لذلك- في رحلة حجّ إلى مدينة مكّة. كان أحد الدوافع

الخفية المحتملة لذهابه إلى الحج التي أوردها القفطي، هو إظهار إيمانه للعامة بهدف تهدئة حالات الاشتباه حول اتباعه لمذهب الشك، ودحض مزاعم التهجم غير الأخلاقي الذي وجهه إليه رجل دين معاد. تمت دعوته بعد ذلك من قبل السلطان الجديد سنجار إلى مدينة مرو الشاهجان للعمل كمنجم للبلاط الملكي. سُمح له لاحقًا بالعودة إلى نيسابور بسبب تدهور حالته الصحية. وقيل أنه قد عاش حياته -بعد عودته إلى مسقط رأسه- في عزلة عن البشر

توفي عمر الخيام عن عمر يناهز 83 عاما في مدينة نيسابور في الرابع من ديسمبر عام 1131. ودُفن في قبر كان قد تنبأ بموقعه في شعره، في بستان تسقط فيه الأزهار مرتين في السنة، ويطلق على ذلك المكان الآن ضريح عمر الخيام وقد فسر البعض رباعياته على أنها إلحاد، كونها تدعو إلى اللهو والمجون بينما يرى الفريق الآخر أنه مات مسلماً، مستمداً استنتاجه من سيرة الخيام ومؤلفاته ومن رافقه من العلماء.

يقول عمر الخيام:

أفنيت عمري في اكتناه القضاء

وكشف ما يحجبه في الخفاء

فلم أجد أسراره وانقضى

عمري وأحسست دبيب الفناء

ويقول في رباعياته:

لبست ثوب العمر لم أستشر

وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني ولم

أدرك لماذا جئت أين المقر

لم يبرح الداء فؤادي العليل

ولم أنل قصدي وحان الرحيل

وفات عمري وأنا جاهل

كتاب هذا العمر حسم الفصول

وهو يعجب لهذا الفناء السريع للشباب والحياة فيقول:

تناثرت أيام هذا العمر

تناثر الأوراق حول الشجر

فانعم من الدنيا بلذاتها

من قبل أن تسقيك كف القدر

أطفئ لظى القلب ببرد الشراب

فإنما الأيام مثل السحاب

وفي موضع آخر يتدارك نفسه فيقول:

يا عالم الأسرار علم اليقين

يا كاشف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار فئنا إلى

ظلك فاقبل توبة التائبين

من هنا نرى أن رباعيات الخيام تتراوح بين الإيمان والإلحاد وبين الدعوة للمجون والدعوة للهو وبين طلب العفو من الله وإعلان التوبة، لذا اختلف العلماء في تصنيف عمر الخيام والأرجح أنه لم يخرج عن المألوف إنما هي صرخة في وجه الظلم والأمور الدخيلة على الدين الإسلامي في عصره.

ومن رباعياته أيضا ما يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي وتقويم النفس البشرية حيث يقول:

صاحب من الناس كبار العقول

واترك الجهال أهل الفضول

واشرب نقيع السم من عاقل

واسكب على الأرض دواء الجهول

ومن الرباعيات ذات الدلالة إلى اتجاهه الديني أيضا تلك التي ينشدها قائلاً:

إن لم اكن اخلصت في طاعتك

فإني اطمع في رحمتك

وإنما يشفع لي انني

قد عشت لا اشرك في وحدتك

ولم يفكّر أحد ممن عاصره في جمع الرباعيات، فأوّل ما ظهرت سنة 865 هـ أي بعد رحيله بثلاثة قرون ونصف، وأوّل ترجمة للرباعيات كانت للغة الإنجليزية، وظهرت سنة 1859، أما الترجمة العربية من الفارسية فقام بها الشاعر المصري أحمد رامي، وهناك ترجمة أخرى للشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي، كما ترجمها كذلك الشاعر الأردني عرار.

* * * * *

الاستراتيجية العسكرية الحشاشين

في سعي حسن الصباح ورفاقه لنشر المذهب الإسماعيلي في إيران، اعتمد على إستراتيجية عسكرية مختلفة عن تلك السائدة في العصور الوسطى. وتمثلت هذه الإستراتيجية في الاغتيال الانتقائي للشخصيات البارزة في دول الأعداء. بدلا من الخوض في المعارك التقليدية التي تؤدي إلى ايقاع الاف القتلى من الجانبين. ولاجل ذلك أسس حسن الصباح فرقة متكونة من أكثر المخلصين للعقيدة الإسماعيلية وسماها ب«الفدائيين».

وكان الفدائيون مدربين بشكل احترافي على فنون التنكر والفروسية واللسانيات والإستراتيجيات والقتل. وكان أكثر مايميزهم هو استعدادهم للموت في سبيل تحقيق هدفهم. وكان على الفدائيون الاندماج في جيش الخصم أو البلاط الحاكم بحيث يتمكنوا من الوصول لأماكن إستراتيجية تمكنهم من تنفيذ المهمات المنوطة بهم. وهناك قصة مثيرة يرويها المؤرخ كمال الدين فيقول ان زعيم الحشاشين سنان راشد الدين في سورية أرسل مبعوثا إلى صلاح الدين الايوبي وأمره ان يسلم رسالته اليه دون حضور أحد فامر صلاح الدين بتفتيشه وعندما لم يجدوا معه شيئا خطيرا أمر صلاح الدين بالمجلس فانفض ولم يعد ثمة سوى عدد قليل من الناس، وأمر المبعوث ان يأتي برسالته، ولكن المبعوث قال: «امرني سيدي الا أقدم الرسالة الا في عدم حضور أحد» فامر صلاح الدين باخلاء القاعة تماما إلا من اثنين من المماليك يقفان عند رأسه

وقال: «ائت برسالتك»، ولكن المبعوث اجاب: «لقد أمرت بالا أقدم الرسالة في حضور أحد على الإطلاق» فقال صلاح الدين:«هذان المملوكان لايفترقان عني، فاذا أردت فقدم رسالتك والا فارحل» فقال المبعوث:«لماذا لاتصرف هذين الاثنين كما صرفت الاخرين؟» فاجاب صلاح الدين:«انني اعتبرهما في منزلة أبنائي وهم وأنا واحد» عندئذ التفت المبعوث إلى المملوكين وسألهما:«إذا امرتكما باسم سيدي ان تقتلا هذا السلطان فهل تفعلان؟» فردا قائلين :نعم، وجردا سيفهما وقالا:«امرنا بما شئت» فدهش السلطان صلاح الدين وغادر المبعوث المكان وأخذ معه المملوكين.

طيلة ثلاث قرون نفذ الفدائيون اغتيالات ضد الأعداء الدينيين والسياسيين للإسماعيلية، وكانت هذه الهجمات تشن غالبا في الأماكن العامة على مرأى ومسمع الجميع لاثارة الرعب. ونادرا ما نجا الفدائيون بعد تنفيذ مهامهم، بل انهم لجئوا في بعض الحالات إلى الانتحار لتجنب الوقوع في ايدي الأعداء.

النهج العسكري لدولة الحشاشين كان إلى حدا كبير دفاعيا. فرغم أنتشار الإسماعيليين في المدن إلا أن المعاقل الرئيسية لهم كانت متمثلة في القلاع الحصينة والتي تبنى غالبا فوق قمم الجبال مما يجعلها ملاذا امنا في مواجهة أي غزو محتمل.حيث كان الحشاشون يحرصون على بناء مخازن كبيرة لخزن الماء والطعام داخل القلاع مما يجعلهم قادرين على مواجهة الحصار الطويل وقد نجحت هذه القلاع في صد أغلب الهجمات الموجهة إليها والصمود لسنوات.

الانشقاق عن الفاطميين

أخذت الدولة الفاطمية على عاتقها نشر العقيدة الإسماعيلية في معظم المناطق الإسلامية وقد حققت بذلك نجاحات كبيرة في مصر واليمن والحجاز وبلاد الشام إلا أن نشر الدعوة في بلاد فارس قد شكل تحديا مهما للفاطميين، وذلك لأن إيران كانت بعيدة عن سلطة الدولة الفاطمية ووقوعها تحت الحكم السلجوقي السني الذي كان لا يتوانى عن قمع أي حركة إسماعيلية. إلا أن هناك كثير من الدعاة كانوا مستعدين لتحمل تلك المخاطر في سبيل نشر عقيدتهم، وكان من هؤلاء الدعاة حسن الصباح.

وكما ذكرنا فقد ولد حسن الصباح لأسرة شيعية اثنا عشرية واعتنق الإسماعيلية فيما بعد، وانتقل إلى القاهرة سنة 471 هـ\1078م لتعلم عقائد مذهبه الجديد بشكل أكبر.

كانت الدولة الفاطمية في تلك الفترة تعاني الكثير من المتاعب والفوضى الداخلية والخارجية. الأمر الذي أجبر الخليفة والإمام الفاطمي المستنصر بالله على الاستعانة بواليه على عكا بدر الدين الجمالي، وإعطائه الصلاحيات المطلقة. نجح بدر الدين من تخليص الدولة إلا انه استبد بالحكم حتى أصبح هو الحاكم الفعلي للدولة من دون الخليفة.

كان حسن شديد العداء لبدر الدين الجمالي حتى أنه أبعد عن القاهرة وعاد إلى أصفهان عام 473 هـ\1081م في ظل ظروف

غامضة وبأمر من بدر الجمالي.

بلغت سطوة بدر الجمالي أن عهد بالوزارة لابنه الأفضل شاهنشاه الذي كان يشاركه في أعمال الوزارة فلما توفي بدر في جمادى الأولى (487 هـ =1094 م) خلفه ابنه في الوزارة، وأقره الخليفة على منصبه، ثم لم يلبث أن توفي المستنصر بعد ذلك بشهور في)18 من ذي الحجة سنة 487 هـ =29 ديسمبر 1094م) عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا، وبعد حكم دام نحو ستين عامًا.

وكان الخليفة المستنصر قد سمى أكبر أولاده نزار المصطفى لدين الله خلفا له في الإمامة والخلافة. إلا أن للوزير الأفضل الذي كان يهدف لتقوية مركزه الدكتاتوري خططا أخرى. فسارع للتحرك عقب وفاة الخليفة المستنصر مباشرة في خطوة وصلت إلى حد الانقلاب في القصر فقام بتنصيب الاخ الغير شقيق لنزار «أحمد» على راس العرش الفاطمي ولقبه بالمستعلي بالله.

وكان على المستعلي بالله اصغر أبناء المستنصر وابن اخت الوزير الاعتماد الكلي على وزيره القوي. سارع نزار المخلوع إلى الفرار إلى الإسكندرية وأعلن من هناك الثورة. وحققت ثورته نجاحات كبيرة.وتقدمت قواته إلى مشارف القاهرة الا انها ما لبثت ان تعرضت لهزيمة كبيرة وقع على اثرها نزار في ايدي جنود الأفضل ليسجن ويقتل.

وكان الخليفة المستنصر قد أبلغ حسن الصباح أن الإمام من بعده

ميكون نزار لذلك فهو لم يتردد في تأييد قضية نزار وقطع روابطه بنظام الحكم الفاطمي وأعتبر المستعلي بالله غاصبا للخلافة والإمامة واتبعه بذلك جل الإسماعيليين في فارس.وبايع نزار وابنه الهادي من بعده على الإمامة ليعرفوا فيما بعد بالإسماعيلية النزارية. وبمرور الوقت استطاع «النزاريون» الثأر لنزار وذلك باغتيال الوزير الافضل سنة 1121م وفي عام 524 هـ\1130م أغتيلَ الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله في القاهرة من قبل عشرة حشاشين.

* * * * *

الامام حسن الصباح الباطني

بمجرد أن سيطر حسن الصباح على قلعة ألموت بدأ بنشر دعاته في جميع أرجاء إيران السنية التي كان سكانها يتذمرون من الحكم السلجوقي للبلاد. فأرسل دعاته إلى كوهستان، وهي منطقة جبلية قاحلة -تقع على الحدود بين إيران وأفغانستان الحاليتين- وقد تحوّل الأمر في كوهستان إلى ما يشبه الثورة الشعبية أو حركة استقلال من الحكم السلجوقي، فقد هبّ الإسماعيليون في ثورات صريحة في كثير من أنحاء الإقليم وفرضوا سيطرتهم على عدة مدن رئيسية وهي سوشان وقسين وطبس وتون وأخريات.
وسرعان ما انتشرت الدعوة في منطقة رودبار المجاورة لقلعة ألموت وحققت نجاحاً لا يقلّ عن مثيله في كوهستان. وكانت المناطق الجبلية ذات ميزة واضحة للتوسع الإسماعيلي. وهناك مناطق مماثلة تقع في الجنوب الغربي لإيران في المنطقة بين خوزستان وفارس حيث البلاد المنيعة والسكان الساخطون على الحكم السلجوقي والتراث المحلي الموالي للشيعة والإسماعيلية.

وقد أثار هذا الانتشار السريع والانتفاضات على السلطة السلجوقية عظيم القلق عند السلطان السلجوقي ملكشاه ووزيره الأكبر نظام الملك الذي كان شديد العداء للإسماعيليين ولحسن الصباح.

ولم يتأخر السلاجقة في مواجهة هذا التمرد عسكرياً ففي سنة 1092 م قام السلاجقة بتحشيد جيوشهم، وفرضوا الحصار على

قلعة ألموت معقل الدعوة الإسماعيلية وهاجموا منطقة كوهستان.

ويذكر المؤرخ الجويني بأن حسن الصباح لم يكن معه في قلعة الموت أكثر من ستين أو سبعين شخصاً في ذلك الوقت، ولكنهم نجحوا في صد محاصريهم. وفي إحدى ليالي سبتمبر من نفس السنة هاجم سكان رود بار بشكل مفاجئ الجيش السلجوقي؛ مما أدى إلى انسحاب الجيش وانتهاء الحصار عن ألموت، ثم ارتفع الحصار في كوهستان عندما وصلت أخبار وفاة السلطان السلجوقي في نوفمبر 1092م\485 هـ ولم يحقق السلاجقة أياً من أهدافهم.

وفي تلك الأثناء أحرز أول نصر كبير لهم. وكانت ضحيتهم الأولى الوزير السلجوقي نظام الملك الذي كان ذا سلطة عالية في البلاط السلجوقي، ومن أحد المحرضين على الهجوم على الإسماعيليين ففي 12 رمضان 485 هـ (16 ديسمبر 1092م) تقدم أحد الفدائيين الإسماعيليين وهو متخف بثياب الصوفيين نحو محفة الوزير الذي كان محمولاً ومتجهاً إلى خيام حريمه، فهاجم الوزير وطعنه فمات الوزير وقُتل المهاجم.

بعد موت السلطان ملكشاه حدث صراع بين أبناءه على السلطة فقد تولى السلطة بعده السلطان بركيارق والذي كان مشغولاً تماماً بالصراع ضد أخيه غير الشقيق محمد تابار الذي كان يحظى بتأييد أخيه الشقيق سانجار وكان على استعداد لأن يطلب المساعدة السرية من الإسماعيليين لمواجهة أعداءه، فقد كان ممثلو بركيارق

في خراسان يحصلون على تأييد الإسماعيليين في كوهستان ضد الجناح المنافس، حتى أنهم قاموا بالعديد من الاغتيالات ضد خصوم بركيارق.

وتمكّن الإسماعيليون من السيطرة على قلعة بشرق البورج في عام 1096م حيث حصلوا على مساعدات قيمة من حاكم دمعان، وهو ضابط يُدعى مظفر كان قد تحول سراً إلى العقيدة الإسماعيلية، إلا أنه كان يتظاهر بالولاء للدولة السلجوقية حتى عُين قائداً على قلعة، فقام بترميمها وعندما اكتملت ترتيباته صدع بحقيقة انتمائه باعتباره إسماعيلياً من أتباع حسن الصباح، وظل يحكم القلعة 40 سنة، وكانت قلعة غيردكوه تطل على الطريق الرئيسي بين خراسان وغرب إيران مما جعلها ذات قيمة إستراتيجية كبيرة للقوة الإسماعيلية المتصاعدة.

واستطاع الإسماعيليون تدعيم قوتهم في رود بار أكثر فأكثر بالسيطرة على قلعة لامسار بهجوم شنوه عليها في الفترة من 1096 إلى 1102 وكان يقود الهجوم «كيا بزرجميد» الذي ظل قائداً للقلعة طيلة عشرين عاماً. وكانت القلعة تحتل مكانا استراتيجياً فوق صخرة مستديرة تطلّ على نهر شاه رود.

استمر الانتشار السريع للدعوة ليصل إلى أصفهان والتي كانت مقر السلطان السلجوقي نفسه، ورغم الصعوبات تمكنوا من السيطرة على قلعة شاه ديز؛ والتي تقع بالقرب من المدينة. وكان أحمد بن عبد الملك بن عطاش يتولى الدعوة السرية فيها حتى تمكّنوا من

السيطرة على قلعة أخرى قريبة من أصفهان تسمى (حصن خالنكان).

وفي صيف 1100م أوقع بركيارق الهزيمة بمنافسه محمد تابار الذي انسحب إلى خراسان وفي أعقاب النصر أصبح الإسماعيليون أكثر جسارة في نشر دعوتهم، وكسب مزيد من التأييد الشعبي.

لكن بركيارق قرر وضع حد للقوة الإسماعيلية المتصاعدة في المنطقة. ففي عام 1101م توصل إلى اتفاق مع أخيه سانجار - الذي كان لا يزال يحكم خراسان - على اتخاذ موقف مشترك ضد الإسماعيليين. فأرسل سانجار حملة عسكرية كبيرة إلى معاقل الإسماعيليين في كوهستان وفرضوا الحصار على قلعتهم هناك وكانوا على وشك الاستيلاء على القلعة لكن الإسماعيليين رشوا الأمير ليرفع الحصار ويذهب لحال سبيله. إلا إن الحملة العسكرية قد عادت - وبشكل أقوى - بعد ثلاث سنوات، وقد نجحت هذه الحملة في تدمير قلاع الإسماعيليين في المنطقة، وسلب ونهب المستوطنات الإسماعيلية وأخذ بعض سكانها كأرقاء. إلا أن كل هذا لم يكن كافياً في قمع الدعوة الجديدة؛ فقد استطاع الإسماعيليون بعد مدة غير طويلة تقوية أنفسهم في كوهستان مجدداً.

ولم يبذل بركيارق جهداً حقيقياً لمهاجمة مراكز الإسماعيليين؛ إلا أنه سمح بإعداد مذبحة للمتعاطفين مع الإسماعيلية في أصفهان. وهكذا اشترك الجند والمواطنون في تصيد المشبوهين الذين كان يُحاط بهم ويؤخذون إلى الميدان الكبير حيث يقتلون وكان عدد

ضحايا هذه المذبحة 800 إسماعيلياً، ومن أصفهان امتدت الإجراءات ضد الإسماعيليين إلى العراق حيث قُتلوا في معسكر ببغداد وأحرقت كتبهم، وكان أحد الإسماعيليين البارزين -يدعى إبراهيم أسدآبادي- قد أرسله السلطان نفسه في مهمة رسمية إلى بغداد، فأرسل السلطان أوامر بقتله، وعندما جاء سجّانوه ليقتلوه قال لهم أسد آبادي:«حسناً، إنكم ستقتلونني؛ ولكن هل يمكنكم قتل هؤلاء الذين في القلاع؟!».

كانت سخرية أسدآبادي في محلها، لقد أصيب الإسماعيليون بنكسة كبيرة بسبب غدر بركيارق بهم، ولكن ظلت قلاعهم منيعة، كما أنهم لم يستسلموا؛ ففي عامي 1101م و1103م تمكنوا من اغتيال مفتي أصفهان ووالي بيهق ورئيس الكرمية؛ وهي جماعة دينية متشددة ضد الإسماعيلية.

بعد وفاة بركيارق في 498 هـ\1105م بذل خليفته محمد تابار جهداً حازماً للقضاء على القوة الإسماعيلية نهائياً؛ فقرر أن يبدأ بقلعة أصفهان؛ لذا قاد جيشه بنفسه ضدهم؛ وألقى عليهم الحصار في 2 أبريل 1107م، لم يمض وقت طويل على الحصار حتى اتُفِقَ على إخلاء القلعة وتسليمها للسلطان مقابل السماح للإسماعيليين بالمغادرة بسلام، وبالفعل أخلى جزء من الإسماعيليين القلعة وانصرفوا إلى مراكز الإسماعيليين القريبة، إلا أن أحمد بن عطاش -زعيم القلعة- وثمانين آخرين رفضوا الانسحاب وقرروا القتال حتى الموت فهوجمت القلعة، وقُتل جميع من فيها وأسر ابن

عطاش الذي عرض في موكب طاف شوارع أصفهان ثم سلخ حياً وأرسل رأسه إلى بغداد.

ولكن السلطان السلجوقي الجديد لم يكتف بذلك، فقرر قيادة حملة عسكرية لتدمير المراكز الرئيسية للإسماعيليين المتمثلة في قلاع رودبار وغيردكوه؛ وبخاصة قلعة ألموت العظيمة مقر حسن الصباح. ففي عام 1107م-1108م أرسل السلطان حملة عسكرية إلى رودبار تحت قيادة وزيره أحمد بن نظام الملك والذي كان والده أول ضحايا الإسماعيليين أحرزت هذه الحملة متاعب كثيرة للإسماعيليين، إلا أنها فشلت في تحقيق هدفها الرئيسي في الاستيلاء على قلعة ألموت.

وبعد أن اتضح للسلطان السلجوقي أن الاستيلاء على قلعة ألموت بالهجوم المباشر مستحيل؛ لذا قرر اللجوء إلى حرب استنزاف. فيقول المؤرخ الجويني:«لثماني سنوات متوالية كانت القوات تأتي إلى رودبار وتدمر المحاصيل ويشترك الجانبان بالقتال» حتى أصيب الإسماعيليون بقحط شديد، فقرر السلطان محمد تاپار إرسال قواته بقيادة شيرجير لمحاصرة القلاع حتى تدميرها، وبالفعل تمت محاصرة لامسار في 4 يوليو 1117م\511 هـ وقلعة ألموت في 13 يوليو وأقاموا المنجنيق. وما إن حل شهر أبريل 1118م حتى كانوا قد أوشكوا على الاستيلاء على القلاع إلا أن الأنباء قد وصلت بوفاة السلطان محمد فتفرق الجند ونجا الإسماعيليون من الفناء. كان انسحاب جيش شريجير وهو على

وهذا الانتصار سبباً لخيبة أمل شديدة عند أعداء الإسماعيليين، كما يبدو أن أنباء وفاة السلطان لم تكن وحدها السبب في هذا الانسحاب المتعجّل، إذ قد يكون هناك دور لعبه الوزير السلجوقي قوام الدين نصير الدرجازيني، ويُقال أنه كان إسماعيلياً في السر وكان لهذا الوزير التأثير الكبير على السلطان محمود ابن السلطان المتوفي وخليفته ويقول برنارد لويس: «إنهُ هو الذي دبر انسحاب جيش شيرجير من الموت وبذلك أنقذ الإسماعيليين في آخر لحظة، كما أنه حرّض السلطان الجديد محمود ضد شيرجير فألقى به في السجن وقتله، وقد أُتهم الدرجازيني بعد ذلك بالتآمر في عدة اغتيالات أخرى؛ مما جعل أصابع الشك تتجه إلى أنه لعب دوراً في وفاة السلطان محمد المفاجئة».

تميّز حكم محمود بالفوضى والتمرد، وبدأت مرحلة جديدة من النزاعات الداخلية بين السلاجقة. وخلال هذه الفترة تغيرت طبيعة العلاقات بين الإسماعيلية والدول السُنّية، وأصبحت تميل إلى الهدوء والتسامح، وحصلوا على قدر كبير من الاعتراف السياسي، وظهرت الولايات والإمارات الإسماعيلية على شكل دول مستقلة، وشاركت في التحالفات والمنافسات المحلية.

في مايو 1124م\518 هـ مرض حسن الصباح فأعدّ العُدة لمن سيخلفه، فوقع اختياره على رفيقه بزرجميد (بزرك أميد)، فتوفي حسن الصباح في الـ23 من نفس الشهر.

الاراء التاريخية حول حسن الصباح

عاش الصباح في فترة سادت فيها الحروب بين مختلف الطوائف، السلاجقة، العباسيون، الايوبيون، الصليبيون وغيرهم من الطوائف، إلا أن كلها اجمعت على ان الصباح كان قوي الشكيمة، ودائم حضور الذهن، ويقاتل كل من يحاول الاقتراب من دولته بغض النظر عن طائفته وان تابعيه أو فدائيه يتمتعون بالحرص الشديد والطاعة والمقدرة على تنفيذ المهمات الموكلة لهم. واختلفت على كيفة ذلك وفيما يلي بعض الاراء عنه:

الغرب هم الذين اطلقوا اسم الحشاشون (بالإنجليزية: Hashshashin) على هذه الطائفة ومنها اتت الكلمة بالفرنسية (Assassin- قاتل) وخصوصاً ماكتبه الرحالة الإيطالي ماركو بولو الذي ادعى زيارة قلعة آلموت. والقصص والروايات عن هذه الطائفة كثيرة عند الغرب حيث وصفت كيفية سيطرة الصباح على اتباعه باستخدام الحشيش وترغيبهم بجوائز وغنائم لتنفيذ عملياتهم وإلى اخره.

العباسيون والايوبيون اعتبروا الصباح عدوا وقاتلا حيث تذكر المصادر انهم حاولوا اغتيال الناصر صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة وكذلك الخليفة العباسي المسترشد بالله.

السلاجقة أيضا اعتبروا الصباح ألد اعدائهم خصوصا بعد اغتيال نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، وفخر الملك ابنه.

الإسماعيليون: الصباح قائد وإمام وإن لإصباح اتباعه التام وطاعتهم العمياء لأوامر رؤسائهم ما كان إلا من تبادل الثقة بين الرئيس والمرؤوس والإيمان القوي المطلق بعقيدتهم المثلى وبإمامهم الذي يبذلون أرواحهم رخيصة في سبيله لأنهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من النفس الكلية.

* * * * *



الملك الناصر صلاح الدين يوسف إبن أيوب إبن شادى إبن مروان

خلفاء حسن الصباح

بعد وفاة حسن الصباح لم يكن له خليفة مناسبا غير بزرجميد (بزرك أميد) وكان لوفاة زعيم الإسماعيليين خبراً مفرحاً لجميع أعدائهم، الذين اعتقدوا أن بعد وفاة حسن الصباح ستشكل فرصة للهجوم على دولته وتدميرها. ففي عام 1126م -أي بعد مرور سنتين على خلافة بزرجميد- شنّ السلطان سنجار هجوماً على الإسماعيليين. وتجدر الإشارة إلى أن سنجار لم يهاجم الإسماعيليين منذ عام 1103م وربما ذلك لأنه دخل بنوع من الاتفاق معهم، ولكن يبدو أن شعور السلطان بالثقة المتزايدة وظنه بضعف الإسماعيليين تحت حكم حاكمهم الجديد يشكلان تفسيراً كافياً لقرار الهجوم، وكان الوزير معين الدين كاشي من أكثر المتحمسين لاتخاذ أجراء عنيف ضد الخطر الإسماعيلي.

تمكّن السلاجقة من تحقيق انتصارات غير حاسمة في كل من تارز وتوراي وقتلوا عشرات الآلاف من الإسماعيليين إلا أنها فشلت كثيرًا في رودبار. لم يتأخر الإسماعيليون في الانتقام، حيث تمكن اثنان من الفدائيين من شق طريقهم إلى قصر الوزير معين الدين ليقتلاه في 16 مارس 1127م. كما استطاع الإسماعيليون من توسيع قوتهم في رودبار والاستيلاء على طلقان وتمكنوا من الإغارة على سيستان.

وفي عام 1131م\525 هـ توفي الخليفة السلجوقي لينشب النزاع المعتاد بين إخوانه وأبنائه على الحكم. وقد استطاع بعض الأمراء

توريط الخليفة العباسي المسترشد في تحالف ضد السلطان مسعود أحد المتنازعين على الحكم في إيران، وفي عام 1139م\529 هـ وقع الخليفة ووزيره في أسر مسعود، وساق مسعود أسيره الكبير إلى مراغة، ولم يكن الإسماعيليون ليضيعوا مثل هذه الفرصة فتمكنوا بنجاح من اقتحام المعسكر واغتيال الخليفة العباسي المسترشد ووزيره. لينتهي حكم بزرجميد بوفاته في 9 فبراير 1138م.

ثم تولى الزعامة محمد بن بزرجميد بعد وفاة أبيه دون متاعب، وقد عينه وريثاً له قبل 3 أيام من وفاته. وكان أول ضحايا الحكم الجديد الخليفة العباسي السابق الراشد ابن الخليفة المسترشد الذي اغتاله الإسماعيليون أيضاً. حيث أغتيل في أصفهان في يونيو 1138م،كما اغتال الإسماعيليون السلطان السلجوقي داود الذي أغتيل في تبريز عام 1143م.

وكان أكبر عدوين للإسماعيليين في ذلك الوقت هما: حاكم مازندران وحاكم الري من قبل السلاجقة والذي يدعى «عباس» ويقال أن الاثنين بنيا بروجاً من جماجم الإسماعيليين، وقد اغتيل عباس سنة 1146م أثناء زيارته لبغداد.

وعلى الرغم من اغتيال الإسماعيليين لحكام أكبر الدول المعادية لهم (العباسيون والسلاجقة) إلا أن جذوة الثورة بدا وكأنها انطفأت، فقد وصل الموقف بين الأمارات الإسماعيلية والسلطنات السنية إلى تجمد فعلي وقبول ضمني متبادل بين الفريقين. أما الكفاح

العظيم للقضاء على النظام القديم وإنشاء عصر جديد باسم الإمام الإسماعيلي المستور فقد خبا، وتحوّل إلى مجرد مناوشات على الحدود.

وخلال فترة حكم محمد ظهر زعيم جديد داخل القلاع الإسماعيلية استطاع بذكائه وبلاغة كلماته أن يكسب الكثير من الأتباع، وكان هذا هو حسن المعروف بأنه ابن محمد بن بزرجميد زعيم الإسماعيليين.

كان محمد بن بزرجميد قلقاً من حماس ابنه فقد كان محمد محافظاً في عقيدته الإسماعيلية، ومتشدداً في اتباع المبادئ التي أرساها أبوه وحسن الصباح، واعتبر أن سلوك ابنه لا يتطابق مع هذه المبادئ؛ لذا فإنه استنكره بشدة ودعا الناس قائلاً: «هذا الحسن ابني، وأنا لست الإمام ولكني واحد من دعاته، وكل من يستمع إلى هذه الأقوال ويعتقد بها فهو كافر وملحد». وعلى هذا الأساس عاقب بعض الذين اعتقدوا في إمامة ابنه بكل وسائل الإيذاء والتعذيب. وفي إحدى الحالات أعدم 250 شخصاً في الموت، ثم ربط جثثهم فوق ظهور 250 آخرين وطردهم من القلعة. وبالتالي أخمدت هذه الحركة، وتحمل حسن هذه المضايقات واستطاع أن يبدد شكوك أبيه، وعند وفاة محمد عام 1162م\557 هـ خلفه دون معارضة.

كان حكم حسن علي - ابن الخمسة وثلاثين ربيعاً - في بداية الأمر خالياً من الأحداث المهمة، لم يميزه سوى بعض التخفيف من الإتباع

الحازم للشريعة الذي كان سائداً من قبل في ألموت، ولكنه فجأة بعد عامين ونصف من ولايته وفي منتصف شهر رمضان حدث أمرٌ غريب.

تتفق المصادر على سرد قصة غريبة: ففي اليوم السابع عشر من شهر رمضان عام 559 هـ (8 أغسطس 1164م) أمر حسن بإقامة منبر في فناء ألموت يواجه الغرب ترفرف على أركانه الأربعة رايات، وجاء الناس من مختلف الجهات وبأعداد كبيرة ليتجمعوا حول المنبر وتقول نبذة في وصف ما حدث:

«وبعد قرابة الظهر نزل السيد حسن على ذكره السلام من القلعة مرتدياً ثوباً أبيضاً وعمامة بيضاء، وتقدم نحو المنبر من الجانب الأيمن وارتقاه في خطى وئيدة، وتوجه بالتحية ثلاث مرات: الأولى إلى أهل الديلم ثم إلى الذين على اليمين ثم إلى الذين على اليسار وظل جالساً برهة، ثم وقف مرة أخرى وهو ممسك بسيفه، وتحدث بصوت جهوري مخاطباً سكان العوالم الثلاث: عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، فأعلن أنه قد وصلته رسالة من الإمام المختفي تحمل تعليمات جديدة وتقول: إن إمام عصرنا يبعث إليكم تحياته وسلامه، ويُبلغكم أنه سماكم (خدمه الخصوصيين المختاريين)، وأنه حرركم من أعباء قواعد الشريعة، وأحضركم إلى القيامة.»

ويقول المؤرخ الإسماعيلي رشيد الدين أنه بعد أن أعلن حسن قيامته؛ وزع مكاتيب يقول فيها إنه وإن كان من الناحية الظاهرية

يعرف كحفيد لبزرجميد؛ إلا أنه في الحقيقة الخفية إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل للإمام نزار المقتول في الإسكندرية. ونجد في التراث الإسماعيلي اللاحق إجماع على تأكيد أن حسن ونسله جاءوا من الخط الحقيقي لنزار بالرغم من وجود تفسيرات مختلفة لكيفية حدوث ذلك.

ووفق عقيدة القيامة؛ فإن الواجبات التي يفرضها الإسلام قد تحولت من الطابع العملي الجسدي إلى الروحي، مثلاً إن الشريعة تقول إن على الناس أن يقيموا خمس صلوات في اليوم كي يكونوا مع الله، لكن في القيامة الروحية ينبغي على الناس أن يكونوا دائما مع الله في قلوبهم ويتجهوا بأرواحهم دوماً له، أي أن تكون الصلاة روحية وليست جسدية.

وقد رفض العديد من الإسماعيليين هذا النظام الجديد، واستخدم حسن ضدهم أشد العقوبات «لتحريرهم». وكان من ضمن الذين رفضوا الانصياع للأوامر الجديدة «صهر حسن» وهو سليل أسرة ديلمية نبيلة.

إلا أن المؤرخ الإسماعيلي مصطفى غالب يروي القصة بطريقة مختلفة؛ حيث يروي أن حسن علي أعلن عن حقيقته بأنه إمام بعد أن كان مخبوئاً، فتخلل هذا الإعلان احتفالات كبيرة دامت عشرة أيام سميت فيما بعد بـ «عيد القيامة» ولا يروي أي تغيير في الأمور الشرعية.

وفي يوم الأحد 9 يناير 1166م\561 هـ طُعن حسن بخنجر أثناء تواجده في قلعة لامسار؛ ليفارق الحياة ويدفن في قلعة ألموت.

وخلف حسناً ابنه محمد، وكان شاباً في التاسعة عشر من العمر واستطاع أن يطوّر نظرية القيامة ويرسخها، ومرّت فترة حكمه من دون أحداث بارزة؛ ماعدا بعض الاغتيالات للمنافسين، والتوسع أكثر وقد صاحب فترة حكمه مزيد من الانهيار للدولة السلجوقية المنافسة وتوفي في الأول من سبتمبر 1210م. ليخلفه ابنه جلال الدين.

وقد أظهر جلال الدين في حياة أبيه عدم رضاه على نظريات وممارسات «القيامة»، كما أبدى رغبة في قبول الأخوة الإسلامية بمعناها الواسع، فأعلن - فور وصوله للحكم - عن نبذ نظرية القيامة؛ والعودة إلى المعتقدات الإسلامية السابقة. وأعلن فرض الشريعة مجدداً، وأرسل المبعوثين إلى الخليفة في بغداد ومحمد خوارزمشاه والملوك والأمراء؛ يبلغهم هذه التغييرات؛ الأمر الذي نال استحسان جميع الأمراء؛ وخاصة في بغداد ونالت هذه التغيرات الطاعة السريعة عند جميع أتباعه في كوهستان وسوريا ورودبار وغادر ألموت كما لم يفعل أحد من سابقيه؛ حيث أقام عام ونصف بالخارج دون أن يتعرض للأذى وفي نوفمبر 1221م - وبعد حكم دام عشر سنوات مات جلال الدين حسن ليخلفه ابنه الوحيد علاء الدين محمود.

وقد تولى علاء الدين محمود الحكم وكان صبياً في التاسعة، وظل

وزير أبيه جلال الدين هو الحاكم الفعلي لألموت مدة من الزمن. ويبدو أنه حافظ على سياسة جلال الدين إلى حد ما.

خلال السنوات الأولى من حكم علاء الدين كان الوضع في إيران مناسباً لمزيد من التوسع الإسماعيلي، فالإمبراطورية الخوارزمية كانت قد تحطمت لتوها تحت ضغط الغزو المغولي، فتمكنوا من السيطرة على مدينة دمغان. وقد أرسل في عهده المبعوثين لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية في الهند والتي ستصبح - فيما بعد - المركز الرئيسي لفرقتهم وقد شهد عهده الكثير من الاغتيالات الجريئة ضد أعداء الإسماعيليين. توفي سنة 1255م\653 هـ ليخلفه ابنه ركن الدين.

خلال السنوات الأخيرة من حكم علاء الدين اقترب الإسماعيليون أكثر فأكثر من المواجهة النهائية مع أخطر الأعداء وأكثرهم إرهاباً ورعباً، وهم المغول. ففي عام 1218م وصلت جيوش المغول بقيادة جنكيز خان إلى حدود الدولة الخوارزمية وفي عام 1220 م استولى على المدن الإسلامية القديمة في سمرقند وبخارى، وعندما مات في عام 1227م حدثت هدنة صغيرة لم تلبث أن انتهت ليشن خليفته ركن الدين هجوماً على الدولة الخوارزمية ويسحقها، وذلك في عام 1230م. وما إن حلّ عام 1240م حتى تمكّن المغول من إخضاع غرب إيران بأكمله.

وجاء الهجوم الأخير في منتصف القرن الثالث عشر فقد أرسل الخان الأكبر - الذي كان يحكم حينئذٍ من بكين- حملة جديدة هي

الأهرس بقيادة هولاكو مزودة بأوامر لإخضاع كل دول المسلمين؛ حتى البعيدة منها مثل مصر وعندما قاد هولاكو حملته عام 1256م\654 هـ كانت القلاع الإسماعيلية أول أهدافه.

شنت الجيوش المغولية هجمات على قواعد الإسماعيلية في رودبار وكوهستان، ولكن نجح الإسماعيليون في صد تلك الجيوش، وأفشلوا الهجوم ضد قلعة غيردكوه فشلاً ذريعاً.

لكن ركن الدين (زعيم الإسماعيليين) كان يؤمن بعدم جدوى المقاومة أمام الغزو المغولي؛ فحاول إقامة السلام معهم لإنقاذ دولته. فارسل مبعوثاً إلى قائد المغول في همدان يعرض عليه الاستسلام والخضوع للدولة المغولية، لكن القائد المغولي اقترح أن يقدم ركن الدين خضوعه لهولاكو شخصياً، فارسل أخاه شاهنشاه كحل وسط.

وفي نفس الوقت حاول المغول التقدم في رودبار؛ إلا أن الإسماعيليين تمكنوا من صدهم، غير أن هذه المقاومة الإسماعيلية لم تفلح في منع المغول من السيطرة على عدة مراكز إسماعيلية في كوهستان، حيث نجح المغول في اقتحام قلعتي «تون وخوان» وأعدموا كل من يزيد عمره على عشر سنوات.

رفض هولاكو سفارة شاهنشاه وطلب مقابلة ركن الدين شخصياً لتقديم الاستسلام مقابل أن يضمن هولاكو سلامة الإسماعيليين. فقرر ركن الدين تسليم نفسه، وأمر جميع أتباعه بالنزول من القلاع.

وبالفعل أخليت قلعة ألموت في ديسمبر 1256م\ذي القعدة 654 هـ

وعلى كل حال ففي عام 1256 م سارع البرابرة من المغول إلى تسلق جدران قلعة ألموت التي بقيت صامدة بوجه أقوى الغزوات، وأبدى هولاكو إعجابه بمعجزة البناء العسكري للقلعة. ثم أمر جنوده بهدمها، ولم يستثن المكتبة، لكنه سمح لمؤرخ في الثلاثين من عمره يُعرف بالجويني بدخول المكتبة. فتمكّن من دخول هذا المكان العجيب الذي يحتوي على آلاف الكتب والمخطوطات النفيسة، ولم يكن الجويني يملك إلا عربة واحدة تُدفع باليد. فقرر الجويني أن من أول واجباته إنقاذ كلام الله، فأخذ يجمع - على عجل - نسخ القرآن؛ حتى أمضى الوقت في نقلها. فأضرمت المكتبة والتهمتها النيران على مدى سبعة أيام بلياليها؛ ولتضيع مصنفات لا يُحصى عددها؛ فلم يبقَ منها حتى نسخة واحدة!.

وما إن اعتقل المغول ركن الدين أخذوه إلى قراقورم ليقابل الإمبراطور المغولي مونكو خان، وفي أثناء الطريق اضطروه ليأمر ضباطه في كوهستان بتسليم قلعتهم إلى المغول، ففعلوا بعد أن أمّنهم هولاكو على حياتهم، وبمجرد تحرّك ركاب ركن الدين باتجاه قراقورم قتلوا الآلاف من سكان القلعة، ولم يلبثوا حتى قتلوا ركن الدين وأسرته؛ ولم يستطع الفرار من القتل إلا ابنه «شمس الدين محمد».

ثم قام المغول بجمع أعداد كبيرة من الإسماعيليين بحجة إحصاء

عددهم، فقُتلوا جميعاً. واستمروا بإقامة المذابح الرهيبة في كل مكان وجدوا فيه الإسماعيليين؛ فضلاً عن هدم قلعة ألموت؛ لتنهي بذلك دولة الإسماعيليين في فارس، ولم ينجُ من الإسماعيليين إلا من اعتصم بجبال فارس.

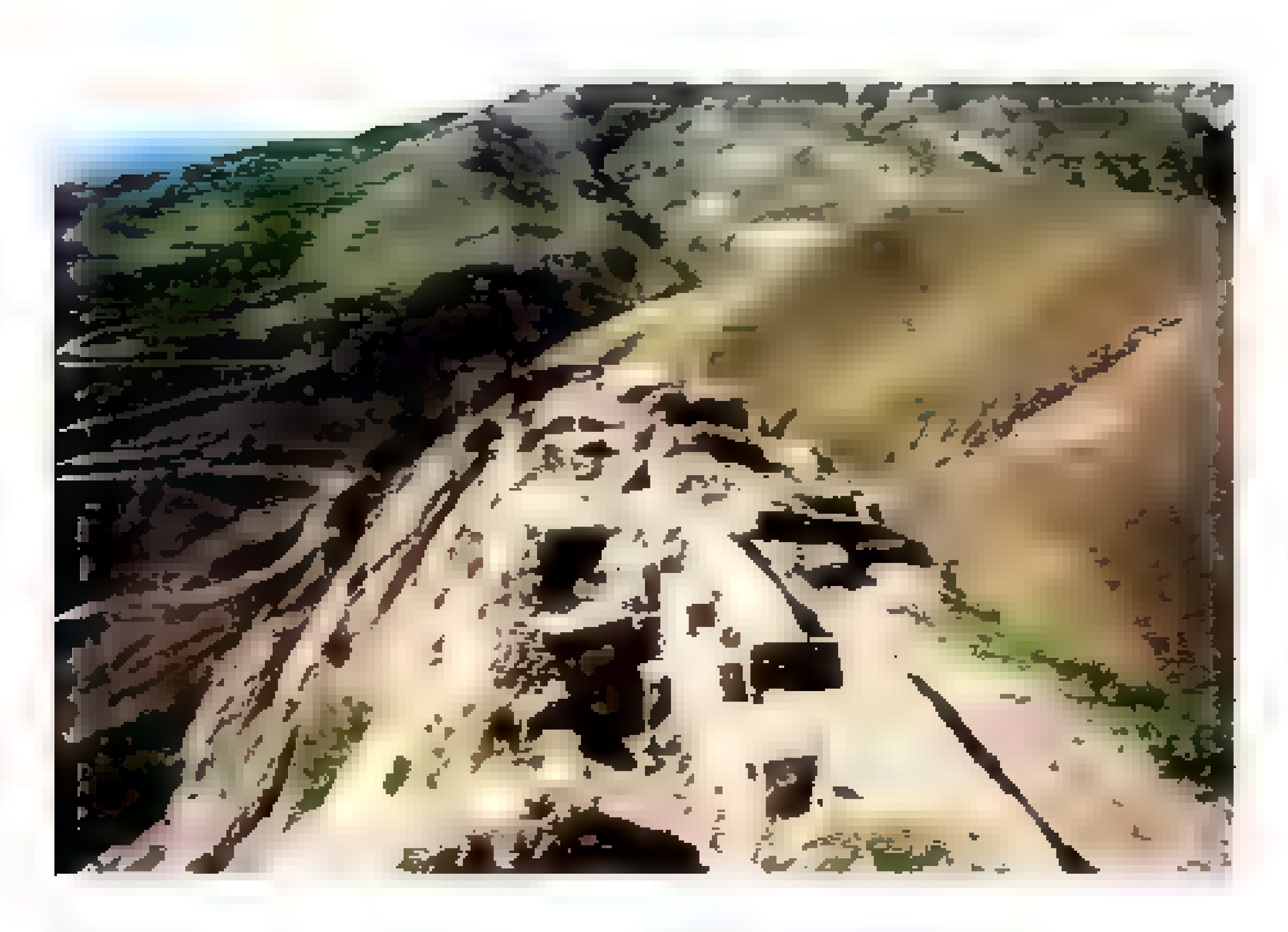
ثم قامت الحصون الأخرى، ففتحوا أبواب قلاعهم، واشتبكوا مع التتر في معارك قوية طاحنة، قتل فيها إثنا عشر ألف إسماعيلي، وثلاثون ألف تتري ولم يتمكّن المغول من السيطرة على قلعة غيردكوه إلا عام 658 هـ.

سقطت قلعة ألموت في ديسمبر 1256 ، وفي نفس العام، أمر مونكو خان، خاقان الإمبراطورية المغولية، بذبح جميع الإسماعيليين النزاريين في بلاد فارس. ركن الدين خورشاه نفسه، الذي سافر إلى منغوليا للقاء مونكو خان، قُتل على يد حارسه المغولي الشخصي هناك. سقطت قلعة غيردكوه أخيرًا في عام 1270، لتصبح آخر معقل نزاري تابع لطائفة الحشاشون يتم احتلاله في بلاد فارس.

وعلى الرغم من أن مذبحة المغول في ألموت فُسرت على نطاق واسع على أنها نهاية النفوذ الإسماعيلي في المنطقة، الا أن النفوذ السياسي للإسماعيليين استمر في عام 1275، تمكن أحد أبناء ركن الدين من استعادة ألموت، ولو لبضع سنوات فقط. تمكن الإمام النزاري، المعروف في المصادر باسم خداوند محمد، من استعادة الحصن مرة أخرى في القرن الرابع عشر. ووفقاً لمرعشي، فإن أحفاد

للإمام ميبقون في ألموت حتى أواخر القرن الخامس عشر ويبدو أيضاً أن النشاط السياسي الإسماعيلي في المنطقة قد استمر تحت قيادة السلطان محمد بن جهانجير وابنه حتى إعدام الأخير عام 1006هـ/1597م.

* * * * *



بقايا قلعة ألموت والتي تعني وكر العقاب

الحشاشين في بلاد الشام

فيما كان حسن الصباح ما زال يحكم قلعة ألموت، قامت مجموعة صغيرة من أتباعه برحلة طويلة خطرة عبر أراضي العدو نحو الغرب. وكانت سورية هي وجهتهم، وكان هدفهم نشر «الدعوة الجديدة» إلى تلك المنطقة. وقد مر كفاحهم لتدعيم أنفسهم هناك بثلاث مراحل :

- المرحلة الأولى 496-506 هـ / 1103-1113 م :

تمكن فيها الإسماعيليون الجدد ان يجعلوا حلب مركزاً لهم في نشر دعوتهم وذلك برضا الحاكم السلجوقي لحلب رضوان حيث سمح لأسعد أبو الفتح الباطني المعروف بالحكيم المنجم وتابعه أبو طاهر الصائغ العجمي بممارسة شعائرهم والدعوة لمذهبهم. وكان رضوان بحاجة إلى حليف قوي في الداخل لمواجهة مؤامرات خصومه، حيث وجد ضالته فيهما فأطلق لهما حرية العمل وسمح لهما ببناء دار للدعوة في حلب. وكانت لحلب مزايا كثيرة تجذب الحشاشين فالمدينة يسكنها عدد كبير من الشيعة الاثنا عشرية وهي مجاورة لمناطق الشيعة الأخرى في جبل سماق وجبل البهرة. وقد كان قاضي حلب فضل الله الزوزني العجمي الحنفي أول ضحاياهم حيث كان يهاجم معتقداتهم. ثم نفذ الحشاشون أول عمليات اغتيال متميزة في أول مايو 1103 م \ 496 هـ عندما اغتال اثنان من الحشاشين متنكرين بثياب متصوفين جناح الدولة حسين أمير

حمص أثناء صلاة الجمعة وكان شديد العداء لرضوان.

وبعد مقتل جناح الدولة تولى زعامة الحشاشين أبو طاهر الصائغ، والذي كان متحمسا لمزيد من الانتشار الإسماعيلي في الشام. ففي سنة 499 هـ / 1105 م شن الإسماعيليون أول هجوم لهم على حصن أفاميا حيث تمكنوا من الاستيلاء عليها وقتل أميرها خلف بن ملاعب في 3 فبراير 1106 م. وسرعان ما وصل أبو طاهر الصائغ لتولي القيادة بنفسه. وظلت أفاميا بأيديهم حتى قام الأمير تانكرد حاكم إمارة أنطاكية الصليبية بمحاصرة المدينة وأرغمها على الاستسلام في 13 محرم 500 هـ / 15 سبتمبر 1106 م. فقتلوا أبو الفتح السرميني وأطلقوا سراح أبو طاهر وبعض زملائه بعد فترة، ليعودا إلى حلب مرة أخرى.

وفي عام 1113 م أحرز الإسماعيليون أكثر ضرباتهم طموحا حتى ذلك الحين باغتيال الأمير مودود في دمشق وهو الحاكم السلجوقي للموصل، إلا أن سطوتهم لم تدم طويلا، فقد توفي أكثر المدافعين عن الحشاشين رضوان بن تتش يوم 29 جمادى الآخر 507 هـ / 10 ديسمبر 1113 م ليتولى ابنه ألب أرسلان الحكم.

اتبع ألب أرسلان سياسة أبيه بالنسبة للتعامل مع الحشاشين في حلب، ولكن لم يلبث أن حدث رد فعل، فقد وصل إليه خطاب من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه يحذره من الخطر الإسماعيلي ويدعوه إلى تدميرهم وقام ابن البديع قائد الشرطة للمدينة بالتقاط المبادرة وحرض الحاكم على النيل من

الإسماعيليين. وبالفعل شن الحاكم هجوما لم يتوقعه الإسماعيليين في المدينة فاعتقل أبو طاهر وزعماء الطائفة وقُتلوا جميعا وتمكن آخرون من الفرار، لتنتهي بهذه النكسة أول مراحل التوسع الإسماعيلي في بلاد الشام.

- المرحلة الثانية (1113م-1130م)- (506 هـ-524 هـ):

بالرغم من النكسة في حلب إلا أن الإسماعيليين الجدد لم يتراجعوا عن طموحهم في نشر دعوتهم. ففي عام 1114م استولت قوة مكونة من مائة إسماعيلي على معقل شيزار بعد هجوم مفاجئ بينما كان الحاكم وجنوده في مكان بعيد يشاهدون احتفالات المسيحيين بعيد الفصح. وقد تعرض الحشاشون فور ذلك لهجوم مضاد أوقع بهم الهزيمة.

وحتى في حلب استطاع الإسماعيليون بالرغم من كارثة 1113م أن يحفظوا لأنفسهم بموضع قدم. ففي عام 1119م طُرد عدوهم ابن البديع من المدينة وهرب إلى ماردين وكان الحشاشون في انتظاره وهو يعبر الفرات فقتلوه.

تمكن خليفة أبو طاهر المعدوم في حلب «بهرام» من نقل النشاط الإسماعيلي جنوبا وسرعان ما بدأ يلعب دورا نشطا في شؤون دمشق. ففي عام 1126م/520 هـ حدث أول تعاون بين الحشاشين والحاكم التركي لدمشق طاهر الدين طغتكين حيث اشتركوا سويا في هجوم فاشل شن ضد حصون الصليبيين.

وقام الحاكم الدمشقي بعد ذلك بمنح الإسماعيليين قلعة بانياس على الحدود مع المملكة الصليبية. كما حصلوا في دمشق على بناية اسموها «بيت الدعوة» واتخذوها مقرا لهم. وفي بانياس أعاد بهرام بناء القلعة وبدا حملة من التوسع في المناطق المجاورة. وكان وادي التيم في إقليم الحصيبة يسكنها خليط من الدروز والنصارى وكان يبدو ملائما للتوسع الإسماعيلي. لكن أثناء محاولة الإسماعيليين السيطرة على المنطقة نشب قتال حاد مع سكانها أدى إلى مقتل الزعيم بهرام وانسحاب الإسماعيليين.

ليتولى الزعامة بعده «إسماعيل» وقد سار على سياسة سلفه، واستمر الدعم الدمشقي له وخاصة من الوزير المزرجاني. ولكن سرعان ماجاءت النهاية ففي عام 1128م\522 هـ توفي طغتكين وبعد وفاته حدثت حملة رد فعل تشبه تلك التي حدثت بعد وفاة رضوان في حلب. وجاءت المبادرة من قبل مفرج بن الحسن الصوفي الذي كان شديد العداء للإسماعيليين وقائد شرطة المدينة بتحريض الحاكم «بوري» ابن طغتكين وخليفته على توجيه ضربة قاضية للإسماعيليين والغدر بهم. ففي يوم الأربعاء 4 ستمبر 1129م\523 هـ حدثت هذه الضربة. حيث اغتيل الوزير المزرجاني -باوامر من بوري- وهو جالس في مجلسه يستقبل الزوار وفصل رأسه عن جسده وما إن انتشر الخبر حتى قام عسكر المدينة ومعهم الرعاع على الحشاشين قتلا ونهبا حتى إذا حل الصباح ابيد الإسماعيليون بالمدينة ولم يعرف عدد الذين قتلوا بالضبط إلا أن

أحد المؤرخين قدر العدد ب 20 الف قتيل وتحقق إسماعيل ان موقفه في بانياس أصبح يائسا فسلم القلعة للإفرنج مقابل إعطاءه واتباعه الملاذ الآمن ففر ومن معه في اراضيهم حيث توفي في عام 1130م.

وقد اتخذ المسؤلين عن هذه المجزرة الكثير من الاحتياطات لحماية انفسهم من انتقام الحشاشين فارتدوا شباك من الازرد واحاطوا انفسهم بالحراس على مدار الساعة. ولكن بدون جدوى، إذ لم تلبث ان جاءت الضربة من مركز الفرقة في ألموت. ففي 7 مايو 1131م\525 هـ تمكن اثنين من الحشاشين متنكرين بزي جنديين تركيين من الدخول لقصر بوري والانقضاض بشكل السريع على «بوري» وطعنه بالخناجر ليموت بوري متاثرا بجراحه.

- المرحلة الثالثة (1130م-1150م)/(524 هـ-545 هـ) :

خلال السنوات العشرين التالية حدثت المرحلة الثالثة والناجحة التي استطاع فيها الحشاشون الحصول على قواعد قلاعية لهم في سورية وكانت هذه المرة في جبل البهرة. ففي عام 1132م اشترى الحشاشون قلعة القدموس. وفي عام 1136م تمكن الحشاشون من طرد الإفرنج من الخريبة وسيطروا عليها. وفي عام 1140م تمكنوا من الاستيلاء على قلعة مصيف والتي ستصبح لاحقا أهم معاقلهم وتمكنوا بعدها من السيطرة على قلاع أخرى وهي الخوابي والرصافة والعليقة والمنيقة.

وتبقى علاقات الحشاشين خلال هذه الفترة غامضة بعض الشيء. غير أن من المعروف أن جماعة من الإسماعيليين النزاريين يقودهم شخص اسمه علي بن الوفا قد تعاونوا مع ريموند الانطاكي في حملته على أمير حلب نور الدين زنكي، الذي أثار عداوة الإسماعيليين بسياسته القمعية للشيعة. وقد فقد علي وريموند كلاهما حياتهما على أرض معركة انب سنة 1149م.

وعقب ذلك بسنوات قليلة في عام 1152م\547 هـ أقدم الحشاشون على اغتيال الكونت ريموند الثاني من طرابلس والذي كان الضحية الإفرنجي الأول الذي يقضي على يد الحشاشين، وقد قام ملك القدس بالدوين الثالث برد هائج بذبح أعداد كبيرة من المسلمين وغزا فرسان الهيكل أراضي الحشاشين وأجبروهم بعد سلسلة من الهجمات على دفع أتاوة سنوية بلغت زهاء 2000 قطعة ذهبية.

* * * * *

شيخ الجبل الثاني

شيخ الجبل سنان بن سلمان بن محمد المعروف برشيد الدين. أعظم رؤساء الحشاشين في سوريا. وصل إلى زعامة الحشاشين سنة 1162م وأعاد تحصين قلعتي الرصافة والخوابي واستولى على قلعة العليقة وبذلك زادت القوة الإسماعيلية النزارية في المنطقة.

ولد سنان في قرية «عقر السودان» بالقرب من مدينة البصرة على الطريق إلى واسط وكان والده أحد نبلاء البصرة وجدت الدعوة الإسماعيلية طريقا إلى قلبه منذ طفولته فترك مدينته -بسبب خلاف عائلي على الارجح- وخرج هائما على وجهه بدون ذخيرة أو وسيلة ركوب حتى وصل إلى قلعة ألموت -معقل الإسماعيليين النزاريين- وكان حاكمها في ذلك الوقت كيا محمد. نال هناك الرعاية والتعليم الكافيين لينتقل فيما بعد إلى سورية .

استطاع سنان من خلال ذكاءه وتفانيه الوصول لزعامة الفرقة في عام 1162م وكانت فتره حكمه تمثل عصرا ذهبيا للفرقة في بلاد الشام. حيث فرض الاسماعيليون نفسهم كقوة مستقلة وسط النزاع بين الدولة الزنكية والايوبية والصليبية.

* * * * *

محاولات أغتيال صلاح الدين الايوبي

وقعت أول محاولة للحشاشين لاغتيال صلاح الدين في ديسمبر 1174م\568 هـ بينما كان يحاصر حلب. حيث تمكن بعض الحشاشين من التسلل إلى معسكر صلاح الدين وقتل الامير أبو قبيس وتلا ذاك عراك قتل فيه عدد كبير من الناس ولكن صلاح الدين نفسه لم يصب بأذى.

وحدثت المحاولة الأخرى في 22 مايو 1176م\572 هـ عندما كان صلاح الدين يحاصر عزز حيث تمكن بعض الحشاشين المتنكرين بزي جنود جيش صلاح الدين من التسلل لمعسكره ومهاجمته. وتمكنوا من قتل العديد من الأمراء ولكن صلاح الدين نفسه لم يصب سوى بجروح بسيطة بفضل الدروع التي كان يرتيدها. وقد اتخذ صلاح الدين بعد هذه الأحداث احتياطات واسعة للحفاظ على حياته، فكان ينام في برج خشبي أقيم خصيصا له ولم يكن يسمح لأحد لا يعرفه شخصيا بالاقتراب منه.

يرجع بعض المؤرخين أسباب هذا العداء إلى تحريض كمشتكين حاكم مدينة حلب. كما ان هناك قصة يرويها بعض المؤرخين، وطبقا لهذه القصة فقد قام عشرة آلاف فارس من «النبوية » -وهي طائفة دينية معادية للشيعة في العراق- بالإغارة في عام 1174م-1175م على مراكز الإسماعيلية في «الباب» و«البوزعة» حيث ذبحوا 13 الف إسماعيلي، وانتهز صلاح الدين فرصة ارتباك الإسماعيليين وأرسل جيشه عليهم يغزو سارمين ومعرة مصرين وقتل معظم

مكانهما. وقد يكون قد قام بذلك أثناء مسيره شمالا باتجاه حلب.

وفي أغسطس 1176م تقدم صلاح الدين في أراضي الحشاشين تحدوه الرغبة في الانتقام وضرب حصار حول مصيف -كبرى قلاع الحشاشين- ولكنه لم يلبث أن فك الحصار وانصرف.

ويعزي مؤرخ صلاح الدين عماد الدين سبب الانسحاب إلى وساطة أمير حماة خال صلاح الدين الذي ناشده جيرانه الحشاشون التدخل لصالحهم. بينما يقدم مؤرخ آخر سببا أكثر اقناعا وهو هجوم الفرنجة على وادي البقاع وما ترتب على ذلك من حاجة ملحة لحضور صلاح الدين هناك. أما كمال الدين بن عديم فيذكر في تاريخه عن حلب. أن صلاح الدين هو الذي طلب وساطة أمير حماه وذلك لهلع أصابه من أساليب الحشاشين وخشية على حياته من الاغتيال.

ويُقال أن صلاح الدين قد بعث ذات مرة برسالة تهديد إلى سنان فكان رد سنان كالتالي:

«قرأنا خطابك وفهمنا نصه وفحواه ولاحظنا ما يحتوي عليه من تهديدات لنا بالكلمات والأفعال، ووالله إنه لشيء يدعو إلى الدهشة أن نجد ذبابة تطن في أذن فيل وبعوضة تلدغ تمثالا، كثيرون قبلك قالوا مثل هذه الأشياء ودمرناهم دون أن يشفع لهم شفيع، فهل تبطل الحق وتؤيد الباطل؟ -{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}- إذا كنت حقا قد أصدرت أوامرك بقطع رأسي وتمزيق

قلاعي في الجبال الصلدة فإن هذه آمال كاذبة وخيالات واهمة لان الأساسيات لا تدمرها العارضات كما أن الأرواح لا تدمرها الأمراض، أما إذا عدنا إلى المحسوسات التي تدركها الحواس وتركنا جانبا المعنويات التي تدركها الأذهان فإن لدينا أسوة حسنة برسول الله الذي قال: "لم يقاس نبي مثلما قاسيت" وأنت تعرف ماذا حدث لدعوته وأهل بيته وحزبه، ولكن الموقف لم يتغير والرسالة لم تفشل وحمد لله لا يزال أولا وأخيرا. إننا مضطهدون ولسنا طغاة، محرومون ولسنا حارمين ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. وانت تعرف ظاهر أحوالنا وقدر رجالنا وما يمكن أن يحققوه في لحظة واحدة وكيف يحبون الموت "(قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)" والمثل الشائع يقول انك لاتستطيع أن تهدد بطة بالقائها في النهر! فخذ كل مافي استطاعتك لتتخذه من احتياطات دون الكوارث والفواجع فأنني هازمك من داخل صفوفك، ومنتقم منك في مكانك، وستكون كمن يدمر نفسه بنفسه "(وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)" عندما تقرأ خطابنا هذا فارتقبنا وترحم على نفسك واقرأ أول "النحل" واخر "صاد".» – راشد الدين سنان

* * * * *

اغتيال ملك بيت المقدس والصليبين

في 28 أبريل 1192م\588 هـ تمكن الحشاشون من توجيه ضربتهم الكبرى باغتيال المركيز كونراد من مونفيراتو " Conrad of Montferrat" ملك بيت المقدس بينما كان في صور حيث تخفى مغتالوه في زي رهبان مسيحيين وشقوا طريقهم إلى خلوة الأسقف والمركيز وعندما سنحت الفرصة طعنوه حتى الموت. ويذكر بعض المؤرخين تعاون صلاح الدين مع الحشاشين لتنفيذ الاغتيال. وتجدر الإشارة إلى ان بعد مرور اربعة أشهر من الاغتيال حصلت هدنة بين صلاح الدين والحشاشين. هذا الاغتيال اخر منجزات سنان الذي توفي عام 1192م\588 هـ

وبعد وفاة سنان شيخ الجبل في سوريا واصل خلفاؤه علاقاتهم الطيبة مع خلفاء صلاح الدين من الايوبيين في سورية في الوقت الذي كانت علاقتهم متشنجة كثيرًا مع الصليبيين فقاموا باغتيال ريموند ابن بوهيموند الرابع في كنيسة في طرطوس عام 1213م\610 هـ الأمر الذي أثار غضب بوهيموندالذي سارع في القاء الحصار على قلعة الخوابي إلا أن حكام دمشق وحلب الايوبيين لم يتاخروا في نجدة الحشاشين واجبار الفرنجة على التراجع وفك الحصار

وفي غضون ذلك تمكن الحشاشون بطريقة ما من تحصيل أتاوات «الجزية» من بعض الأمراء النصارى. ففي عام 1227م بعث فردريك الثاني قائد الحملة الصليبية السادسة (1229-1228)

وملك القدس بسفارة إلى زعيم النزاريين (الحشاشين) وقد أحضر سفراء فردريك هدايا بلغت قيمتها 80000 دينار.

ولاقت محاولات فردريك الثاني مع الحشاشين معارضة فرسان الإسبتارية، الذين سارعوا إلى الهجوم على القلاع النزارية وتكبيد الحشاشين خسائر مادية فادحة. وفي حلول سنة 1228م أقام الطرفان «حلف تعاوني» يدفع بموجبه الحشاشين مبالغ مالية لفرسان الاسبتارية مقابل دفاع الاسبتاريين عن قلاع النزاريين من اعتداءات القوات الصليبية في انطاكية وطرابلس. وقد تطور الأمر إلى تعاون الطرفين (الحشاشين والاسبتاريين) في حملة شنوها من قلعة الحصن سنة 1230م ضد أمير انطاكية بوهيموند الرابع وكان هذا التعاون قد أثار غضب بوهيموند الخامس أمير انطاكية، فقام بكتابة إلى البابا غريغوري التاسع يشكو فيه تحالف الاسبتاريين مع الحشاشين. وفي رد البابا غريغوري على تلك الشكوى كتب إلى رئيس أساقفة صور وإلى اسقفي صيدا وبيروت:

«الحشاشين، أعداء الله وأعداء الاسم المسيحي، الذين تجرؤا سابقا على ذبح ريموند ابن بوهيموند الرابع وكثيرا من العظماء والأمراء الكاثوليك غدرا، ويجاهدون للتغلب على ديننا بالقوة والأخطر من ذلك كله هو أن الحشاشين قد تعدوا، بناء على الوعد الذي قطعه سيد الاسبتارية بدعمهم وحمايتهم من الهجمات المسيحية، ان يدفعوا لهم مبلغا محددا من المال سنويا ولذلك قد بعثنا اليهم باوامر خطية ليكفوا عن حماية ذات أولئك الحشاشين»

نهاية الحشاشين في سوريا

كان الحشاشون في سورية قد شاركوا غيرهم من المسلمين في التصدي للتهديد المغولي، وحاولوا كسب ثقة المماليك - الظاهر بيبرس بإرسال السفارات والهدايا ولم يبد بيبرس في بداية الأمر عداء نحوهم، غير ان بيبرس لايمكن أن يتوقع منه التسامح إزاء استمرار وجود جيب مستقل في قلب سورية ففي عام 1265م أمر بجمع الضرائب والرسوم على الحشاشين ولم يكن باستطاعة الحشاشين الذين اضعفوا في سورية واثبطت عزيمتهم نتيجة مصير اخوانهم الفارسيين ان يبدوا مقاومة تذكر

فأصبحوا هم يدفعون الجزية بدلا من اخذها من امراء الدول المجاورة وسرعان ماأصبح بيبرس هو الذي يعين رؤساء الحشاشين ويخلعهم بدلا من ألموت. ففي عام 1270 م استاء بيبرس من موقف رئيس الحشاشين المسن نجم الدين فخلعه وعين بدله مريم الدين مبارك، وكان الرئيس الجديد يحكم من منصبه كممثل لبيبرس واستثنيت مصيف من سلطته وجعلت تحت السيطرة المباشرة لبيبرس، ولكن مريم الدين استطاع ان يضم مصيف إلى املاكه فعزله بيبرس وجاء به سجينا إلى القاهرة حيث مات مسموما هناك. واستولى عام 1271م\669 هـ على قلعتي «العليقة» و«الرصافة» وسقطت قلعة «الخوابي» في العام نفسه لتسقط بقيه القلاع عام 1273م\671 هـ لتنتهي بذلك دولة الحشاشين في بلاد الشام.

أسطورة الحشيش وحلم الجنة

أن الإشارات التاريخية لاستخدام الجماعة للمخدرات فتعود إلى قصص الرحالة الإيطالي ماركو بولو، لاسيما قصة "أسطورة الفردوس" التي يرد فيها وصف لقلعة ألموت بكونها ضمت "حديقة كبيرة مليئة بأشجار الفاكهة، وفيها قصور وجداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وبنات جميلات يغنين ويرقصن ويعزفن الموسيقى، حتى يوهم شيخ الجبل لأتباعه أن تلك الحديقة هي الجنة."

ووفق رواية ماركو بولو "لقد كان ممنوعاً على أي فرد أن يدخلها، وكان دخولها يقتصر فقط على المنضمين لجماعة الحشاشين. كان شيخ الجبل يُدخِلهم القلعة في مجموعات، ثم يُشربهم مخدر الحشيش، ثم يتركهم نياماً، ثم بعد ذلك كان يأمر بأن يُحملوا ويوضعوا في الحديقة، وعندما يستيقظون يعتقدون بأنهم قد ذهبوا إلى الجنة، وبعدما يُشبعون شهواتهم من المباهج كانوا يُخدّرون مرة أخرى، ثم يخرجون من الحدائق ويتم إرسالهم عند شيخ الجبل، فيركعون أمامه، ثم يسألهم من أين أتوا؟، فيردون: "من الجنة"، بعدها يرسلهم الشيخ ليغتالوا الأشخاص المطلوبين، ويعدهم أنهم إذا نجحوا في مهماتهم فإنه سوف يُعيدهم إلى الجنة مرة أخرى، وإذا قُتلوا أثناء تأدية مهماتهم فسوف تأتي إليهم ملائكة تأخذهم إلى الجنة."

أن قصص الجواري والفردوس والمخدرات غير صحيحة إطلاقا،

"وإنما من وحي خيال الأوروبيين"، لاسيما أن الصليبيين ذهلوا مما كان يمكن لأبناء هذه الطائفة أن يقدموا عليه في سياق الاغتيال السياسي.

وجاء رحالة مثل ماركو بولو وغيره إلى المنطقة لينسجوا الأساطير المتناغمة مع الخيال الأوروبي، في حين أن ماركو بولو نفسه ولد بعد عامين من تدمير المقول لقلعة ألموت، فلم يرها ولا عاصرها، وإنما سمع مما هب ودب من قصص شعبية متناقلة، وقد جرى في هذا السياق دحض الكثير من رواياته". (قلعة ألموت أحرقت سنة 1256م بينما ولد ماركو بولو سنة 1254م).

وهنا يتم إظهار حسن الصباح كأنه ساحر أو مشعوذ يستحوذ على عقول أتباعه، "في حين أنه كان عالم فلك ورياضيات متبحر في العلوم الدينية والهندسة والفلسفة، بحسب المصادر التاريخية، بعكس ما جرى تصويره لدى ماركو بولو وبيرنارد لويس."

وتُطرح علامات استفهام إضافية على رواية ماركو بولو بسبب الطبيعة المناخية لقلعة ألموت الواقعة في جبال جرداء تغطيها الثلوج نحو 7 أشهر في السنة، مما يجعلها غير صالحة لزراعة الحدائق الموصوفة في الكتاب.

وهذا الرأي يدعمه بحث سابق لمجلة Smithsonian التابعة لمعهد سميثسونيان في الولايات المتحدة أكدت فيه أنه "ليس لدى العلماء أي دليل حقيقي على أنهم (النزاريين) شاركوا في الفجور

الذي وصفه بولو، أو أنهم اشترطوا وعوداً مادية بالجنة كدافع".
ونقلت عن المورخ فرهاد دفتري قوله: "على العكس من ذلك، كان الفدائيون... أفراداً يقظين ورصينين للغاية وكان عليهم في كثير من الأحيان الانتظار بصبر ولفترات طويلة من أجل العثور على فرصة مناسبة لإنجاز مهامهم".

ويضيف دفتري أن "الأسطورة السوداء" التي اخترعها كبار المجادلين المناهضين للإسماعيليين في القرن العاشر باتت مقبولة كوصف دقيق من قبل الأجيال المتعاقبة من الكتاب المسلمين في العصور الوسطى والمجتمع الإسلامي ككل". ورغم أن حكايات المخدرات كانت تلفيقاً أوروبياً، فربما استلهمت ذلك من المصطلح المهين "الحشيشين" (متعاطي الحشيش)، الذي كثيراً ما كان يطلقه المسلمون الآخرون على النزاريين.

وتقول المجلة أن الصليبيين الذين وصلوا إلى بلاد الشام بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر تلقوا هذه القصص وتوسعوا فيها لتفسير ما اعتبروه شجاعة غريبة وغير عقلانية من قبل الفدائيين النزاريين. وشملت الأساطير التي أعادوها إلى الغرب وعود الجنة والإفراط في تناول الحشيش، ولكن ليس الحديقة الخادعة، التي كانت فكرة بولو الخاصة.

* * * * *

كلمة أخيرة

بالرغم من تعدد المصادر والمراجع للكثير من الأحداث التاريخية والشخصيات في تلك الفترة تبقى الحقيقة الثابتة بشأن تلك الجماعة، وهي استخدامها الاغتيالات السياسية كسبيل للهجوم والدفاع وإرهاب أعدائها، بصورة ممنهجة ومنظمة ومؤذية، أدت في كثير من الحالات إلى تغييرات جذرية في مسار التاريخ ومصير المنطقة.

وتتفق المصادر التاريخية على أن اتجاه جماعة الحشاشين لاستخدام أساليب الاغتيال السياسي كانت وسيلتهم الوحيدة للمواجهة في وقت كانوا محاطين بهذا الحجم من الدول المعادية وجيوشها الكبيرة.

وأن حسن الصباح وخلفاؤه، المتعصبون والمنضبطون، ممارسين بارعين للحرب غير المتكافئة. لقد طوروا وسيلة للهجوم أبطلت معظم المزايا التي يتمتع بها أعداؤهم، بينما عرضوا عددا صغيرا فقط من مقاتليهم للخطر مما أنتج ردعاً وتوازناً وقلل مستويات الصراع والخسائر فحتى أقوى حكام العصر وأكثرهم حراسة ونفوذ وسلطة عاشوا في خوف من الحشاشين.

وعادة ما كان الفدائيون يهاجمون أهدافهم في أماكن عامة للغاية مثل الساحات والمساجد، وأمام حشود أو أعداد كبيرة من الحراس الشخصيين، لضمان أعداد كبيرة من الشهود المذعورين، وإظهار

استعدادهم للتضحية بحياتهم لقتل أعداء دينهم، وعزز ذلك التصور بأن الهدف الذي يتم تحديده من قبل الحشاشين كان رجلاً ميتاً يمشي.

وبهذه الأساليب قتل الحشاشون المئات من الشخصيات والحكام، أبرزهم اثنان من الخلفاء العباسيين؛ حاكم الموصل السلجوقي الوزير الفاطمي المكروه أفضل شاهنشاه، وابن المستعلي الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، فضلاً عن الوزير نظام الملك الذي كان اغتياله سبباً مباشراً في الحرب الأهلية للدولة السلجوقية وانهيارها فيما بعد، ولمرتين حاول الحشاشون أيضاً اغتيال صلاح الدين الأيوبي.

* * * * *

المصادر والمراجع

- الحشاشون، تأليف برنارد لويس - تعريب محمد موسى، دار المشرق العربي الكبير بيروت.
- الإسماعيلية تاريخ وعقائد، إحسان إلهي ظهير
- طائفة الإسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها، د. محمد كامل حسين.
- أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، برنارد لويس.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير-تحقيق عبد الله القاضي-دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مصطفى غالب-دار الأندلس-بيروت.
- خرافات الحشاشين واساطير الإسماعيليين لفرهاد دفتري -ترجمة سيف الدين القصير دار المدى، دمشق، الطبعة الثانية 2004.
- ماذا قدم المسلمون للعالم إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية للدكتور راغب السرجاني
- كتاب "طبقات الشافعية" لجمال الدين الأسنوي (تحقيق عبد الله الجبوري)
- عمر الخيام على موقع موسوعة الديوان الشعرية

- كتاب "دولة السلاجقة: وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي" لعلي محمد الصلابي
- معجم البلدان، ياقوت الحموي
- البداية والنهاية، ابن كثير

مؤلفات للكاتب :

- رواية لعنة الزمردة اسرار الثعلب
- رواية لعنة الزمردة الجزء الثاني البداية
-رواية لعنة الزمردة الجزء الثالث القربان
- رواية لعنة الزمردة الجزء الرابع برديات أوزاريس (تحت الكتابة)
- رواية تعويذة الحياة
- رواية نباش المقابر
- رواية الموت الاسود (تحت الكتابة)
- كتاب الحشاشين احداث وشخصيات كما ذكرتهم كتب التاريخ
- كتاب حكايات وأساطير (تحت الكتابة)